# الشـفـرة

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

**أسامة إبراهيم**

المدير التنفيذي

**سماح الجمال**

إشراف فني

**أحمد جابر**

تدقيق لغوي

**غادة أحمد**

تصميم الغلاف

**أحمد صادق**

التصميم الداخلي

**محمد عبدالفتاح**

**دار النخبة**

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

**تليفون:** 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

**الشفـرة**

**جلال مأمون**

**عدد الصفحات:** 272

**الطبعة الأولى**

1438 هـ - 2017 م

**جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف**

**رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:** 2017 / 16825

ISBN: 978- 977- 838- 009- 5

# الشـفـــرة

رواية

جلال مأمون

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

# (1)

وقعت عيناي على القلادة التي أهدتني إياها هناء في عيد ميلادي الماضي؛ وكأنني أراها لأول مرة، بل لكأنني أرى علامة برج الميزان لأول مرة في حياتي.

الميزان! هذا الرمز ليس بالبراءة التي يبدو عليها، إنه يحمل سرًّا كبيرًا، "شيفرة"؛ نمر عليها ولا نراها، وإن رأيناها لن نفهم سوى معناها الواضح والمباشر وليس مغزاها الحقيقي... كفتان في مستوى أفقي واحد، إذا وُضِع شيء في إحداها وتُرِكَت الأخرى فارغةً اختل الميزان، وحتى يعود الاتزان يلزم وضع شيء مماثل في الوزن في الكفة الثانية حتى يعود لحالته الأولى...

شيئان "متماثلان" ولكنهما في نفس الوقت "متضادان"؛ يلعب كل منهما دوره، يحكم موقعه على بعد نفس المسافة من المنتصف تمامًا مثل صورة الأشياء في المرآة، ولو كانت الكفتان في أي موضع آخر غير الاتجاه المضاد تمامًا، أو كانت المسافة مختلفةً في كل ناحية لما تحقق الاتزان.

الشيئان المتماثلان يبدو كما لو أنهما هما اللذان يخلقان الاتزان، ولكنهما في حقيقة الأمر لا حول لهما ولا قوة، إن التصميم الهندسي للميزان نفسه، ومدى دقته هو الذي يحدد النتيجة، هو الذي يضع القانون والقواعد وما على اللاعبين إلا اتخاذ موقعهما كما هو مقدر لهما...

حتى يحدث الاتزان لا بد للخير من شر، ولا بد للجنة من نار، ولا بد للسعادة من ألم، ولا بد للصحة من مرض، ولا بد للقوة من ضعف.

ولكن؛ يا ليت الأمر بهذه البساطة، فنحن نرى في الطبيعة اتزانًا بين أكثر من طرفين، فقد خلق الله النبات وخلق آكلات النبات؛ تأكل منه فتنمو وتتكاثر، ثم تأتي آكلات اللحوم فتترك النبات، وتصطاد آكلات النبات؛ فتنمو وتتكاثر، ثم تأتي آكلات الجيف؛ فتنظف سطح الأرض من بقايا طعامهم، وتتغذى الأرض على بقاياهم جميعًا، فتوفر الطعام للنبات لكي ينمو ويتكاثر من جديد.

والآن ماذا لو اختفت آكلات النبات؟ ستختفي وراءها آكلات اللحوم، ويزداد النبات نموًّا وكثافةً. أما إذا اختفت آكلات اللحوم زادت أعداد آكلات النبات بصورة مضطردة، وقضت على النبات تمامًا، وحولت الغابات إلى صحاري، ثم تبدأ هي في التلاشي بدورها.

والسؤال هو: لماذا نصف آكلات اللحوم بأنها متوحشة ومفترسة في حين ننعت آكلات النبات بأنها "وديعة" و"مسالمة"؟ ألا تفترس هي

الأخرى النبات الذي لا حول له ولا قوة؟ أم لأن النبات ساكن وصامت ولا تسيل له دماء؟ ألا تؤدي تلك "الوحوش" أيضًا دورها المرسوم بعناية حتى يتحقق الاتزان في الطبيعة وتمنع "خللًا" محتومًا؟

وليزداد الأمر تعقيدًا فإن هناك فئةً تبدو ظاهريًّا من فئة الفرائس، ولكنها تتحالف مع الصياد، مثل ذلك الطائر العجيب الذي يقترب من التمساح؛ فيفتح له فمه، وبدلًا من أن يلتهمه يتركه في سلام؛ يأكل من الفضلات التي تتبقى بين أسنانه، يعطي له الأمان مقابل ما يوفره له من راحة.

فهل هي أيضًا أدوار مرسومة؟ أم أن الأمر يحتوي على اتفاقات تجارية متبادلة؟ غرائز أصيلة أم صفقات محسوبة؟ ثم ما هو الدور الذي يلعبه ذلك المخلوق المنتصب القامة الذي يسير على قدمين؟ هل هو جزء من ذلك الاتزان الطبيعي؟ أم أنه مخلوق لخلخلة هذا الاتزان؟ هل الميزان له شيفرة خاصة، وتدخل الإنسان ما هو إلا عملية فك لتلك الشيفرة؟ أم أن فك تلك الشيفرة لا ينتج عنه سوى الأهوال؟

الشيء الأكيد أن الاتزان مقصود بذاته كنظام أساسي خُلِق بموجبه كل شيء في هذا الكون، اتزان وراءه تصميم هندسي وقانون من وضع المهندس الأعظم...

أخرجني من تأملاتي صوت السيدة سهير وهي تقول:

-أنا آسفة يا جماعة، الدكتور منع الزيارة، إذا أمكن تتفضلوا دلوقت.

لا أدري لماذا انقبض صدري عندما رأيتها متجهمةً وهي تخطرنا بمنع الزيارة، فطالما كانت مشاعري تجاه الرجل حرفيةً بالدرجة الأولى. لم أكن أكرهه ولكنني أيضًا لم أكن أحبه بالمعنى المفهوم، كنت أحترمه وأقدره وأُعْجَب بذكائه وبرحلة كفاحه الطويلة...

ولكنني لم أستطع أبدًا أن أنفذ إلى أعماق صدره، فلم أفهمه يومًا على الرغم من الأعوام العشرة التي عملت فيها في خدمته. لا أستطيع أن أنسى أنه مد لي يده بفرصة العمل التي أشغلها الآن، وما يتبعها من امتيازات مادية ضخمة؛ يحسدني عليها الكثيرون...

صحيح أنني وصلت إلى ما أنا عليه الآن بمجهود شاق وليال لم أعرف فيها النوم، وإصرار لا يعرف الكلل، ولكنني أعترف أنني لم أكن عبقري التحاليل الأوحد، فهناك عشرات غيري؛ ما كانوا ليضيعوا تلك الفرصة للعمل مع ياسين عبد القادر. فالرجل ما هو إلا أسطورة حية؛ سواءً بالنسبة لأصدقائه وما أقلهم، أو خصومه وما أكثرهم، على حد سواء.

كان الرجل بطلًا منذ شبابه، ترك القاهرة فور تخرجه من كلية الهندسة مضحِّيًا بمستقبل مرموق كمعيد في الكلية فور أن سمع ما يحدث في قريته كفر سلطان...

كان غريبًا على مثل من في سنه؛ وقد ترك قريته مع والديه وإخوته، واستقر في القاهرة منذ نعومة أظفاره أن ينفعل لمشاكل مسقط رأسه؛

الذي لا يكاد يعرف عنه شيئًا باستثناء زيارات المواسم والأعياد وبعض الصداقات الباهتة مع بعض أقاربه...

ولا أدري حتى الآن حقيقة ما حدث في قريته في ذلك الوقت (والتي وُلِدت فيها أنا أيضًا، ولكنني تركتها صغيرًا بصحبة أمي بعد وفاة والدي) لأن ما وصل إلى مسامعي من تاريخ تلك الفترة لم يقنعني كثيرًا بما دفعه لترك كل شيء والذهاب إلى هناك.

فعلى حد ما يُرْوَى أن بعض حالات داء الرئة بدأت تظهر بين أهالي قريته، وسرت أقاويل أن السبب يعود لعوادم مصنع الكيماويات؛ الذي كان مُقَامًا في موقع متميز على إحدى ضفتي النيل في منتصف القرية.

لقد جُنَّ جنونه عندما سمع أن المصنع أُقِيم على النهر مباشرةً، وأخذ يصيح:

- بنوا المصنع على النيل؟ إزاي؟ مين اللي إداهم الترخيص بكده؟ أكيد الموضوع فيه لعب ورشاوى! أنا عارف مين اللي ورا المهزلة دي...

هو العمدة ما فيش غيره، أبويا دايمًا كان بيقول عنه إن ذمته واسعة، ويبيع أبوه علشان القرش، وده إيده طايلة، ويحلل الحرام، وينفد الجمل من خرم إبرة. أنا حطربقها على دماغه هو واللي معاه...

كانت سعادة أهل قريته بحماسه للموضوع لا تُوصَف، خاصةً إنهم اعتادوا أن من يفارقهم للعمل أو الدراسة في البندر لا يعود إليهم مرةً أخرى، ولا يحفل بمشاكلهم.

كان من القلائل بينهم الذي يحمل مؤهلًا عاليًا، ويتحدث بعلم؛ يكاد يكون يقينًا عن مدى الضرر الذي تسببه أبخرة المصنع، وإنه لن يهدأ له بال حتى يغلق هذا المصنع أبوابه.

كان يعتقد أن أفراد بلدته جميعًا سيلتفون حوله باستثناء المقربين من العمدة الذي كان يعتقد أنه كان السبب في تلك المؤامرة، ولكنه فُوجِئ أن الكفر انقسم إلى قسمين يكادان يكونان متساويين، بعضهم وجد فيه الملاذ والمنقذ الذي أتى إليهم على حصان أبيض، والبعض الآخر صدمه بقوله:

– يعني؛ ما تأخذنيش يا باشمهندز إنتَ، يعني جاي شادد. حيلك علينا كده، إنتَ تعرف إيه عننا، وعن أحوالنا؟

– تقصد إيه بنحتاج؟

– يعني مين إلى جال لك إن عندنا مشكلة، ومنتظرين حضرتك علشان تحلها لنا؟

– يعني إنتَ شايف إن كل حالات الربو والأمراض الصدرية اللي جت على البلد فجأة دي من غير سبب؟

– المرض ده بيد ربنا، واللي جال لك إن السبب هو المصنع ده لأنه ما عرفش يشغل ابنه فيه، ولَّا كان عايز له جرشين بلطجة من أصحاب المصنع. إنتَ عارف كانت إيه أحوالنا جبل المصنع ده ما يتبني؟

– طول عمر أبويا بيتباهى إنها كانت أجمل أرض في المحافظة كلها.

– وعشان كده أبوك وغيره فاتوها وراحوا يشوفوا لجمة عيشهم في مصر... اسمع يا ولدي، إحنا عمرنا ما شفنا الخير إلا لما المصنع ده اتجام على أرضنا. الكفور اللي حوالينا كلياتهم كان لما الواحد فيهم يسافر ويشتغل بره، كان بيبر بأهله ويبعتلهم اللي يعفيهم من ذل السؤال... إلا عندنا؛ كلهم براويين؛ اللي يسافر منهم ما نشوفش خلجته إلا في الأعياد...

نجوم لما ربنا يفرجها علينا ويجيلنا الخير مستكترينه علينا؟ ثم إن الناس دي جدموا دراسات وخرايط، وكافة الوزرات جات هنا، وعاينت المكان، وإدتلهم التراخيص إشي صحة وإشي ري وإشي صناعة، وكلهم عندهم مهندزين زي حلاتك والواحد فيهم يفصل منك عشرة، ما تأخذنيش، يعني.

قال بانفعال:

– طيب أنا عايز أسأل سؤال، لما الحكومة كانت عايزة تخصص الأرض دي لمشروع ما اختروش ليه مشروع ليه علاقة بالزراعة، أو تصنيع منتجات غذائية بدل المشروع ده اللي كل الناس بره ما بيسمحوش بيه إلا في المناطق البعيدة عن تجمعات السكان؟ يقوموا يعملوها على النيل؟ فيه دراسات علمية عن ضرر تصنيع الكيماويات...

– حيلك، حيلك يا باشمهندز، إنتَ الظاهر عليك مش عارف حاجة واصل... الأرض إلى خصصتها الحكومة للمصنع في آخر الكفر، حواليها صحراء من كل ناحية ولا حد ساكن جنبها ولا دياولو، وبعيدة عن النيل ييجي بعشرة كيلو...

– نعم؟ أنا أولًا ما جيت بيشاوروا إلي على أرض، المصنع أنها واصلة للناحية الشرقية من النيل...

– وشفت مدخنة بتطلع دخان جنب النيل؟

– لأ، بس شفت سور ومباني...

– ما هي تبع المصنع، إنما الشغل هناك بعيد ما تشوفهش بنظرك.

– يعني هي، الأرض اتخصصت للمصنع لحد النيل، يعني كمان بوروا أرض من أجمل الأراضي الزراعية، والله أعلم باللي بيدور جوه.

– الأرض دي مش بتاعة الحكومة ولا كل الأراضي لحد موجع المصنع.

– أمال بانيين عليها إزاي؟ آه، وضعوا إيدهم عليها كمان.

– حيلك يا باشمهندز، دي كلياتها أراضي كانت ملك أهالي وباعوها بخطرهم للشركة، بيع وشراء، والدفع فوري وبعشرة أضعاف ثمنها كمان!!

***

لم أفهم، لم طلبت مني هناء مقابلتها في مكتب أبيها في تلك الساعة المبكرة من الصباح؟ كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مكتبه منذ دخوله إلى المستشفى...

دخلت من الباب المؤدي إلى حجرة سكرتيرته الخاصة، والتي لم تكن قد وصلت بعد، ومنها إلى غرفة مكتبه؛ حيث وجدت هناء جالسةً على مكتبه، وقد بدت منهمكةً في النظر إلى شاشة الحاسب الآلي الخاص بياسين بك، حتى إنها لم تنتبه لدخولي حتى بادرتها بقولي:

– إيه مواعيد بياعين اللبن دي؟

– إبراهيم؟ تعالى من فضلك؛ لحسن أنا مش فاهمة حاجة.

– إيه بس اللي مش فاهماه؟ بتدوري على إيه عندك؟

– الفايلات اللي على الكمبيوتر ده كلها عن المركز هنا، ميزانيات وحسابات، نتيجة، وعناوين موردين الأجهزة والأدوية والمستحضرات، ما فيش حاجة غير عادية.

– وإيه الغير عادي إللي متوقعة تلاقيه؟ كمبيوتر رئيس مجلس الإدارة في مركز أبحاث طبية في مستشفى متخصصة لعلاج الأمراض الصدرية، حتلاقي فيه إيه غير كده؟

– بابا امباراح في المستشفى قبل ما تيجي تنت سهير فاق ثواني، وقال لي كلام غريب ما فهمتش منه حاجة.

– قال إيه بالضبط؟

– كان كلام ملخبط كده، ومش مترابط: "أنا حاموت... الكمبيوتر بتاعي في المركز عليه حاجات مهمة... لو مت حيبقى في إيديهم كل حاجة... مش لازم نضيع وقت... خلي إبراهيم يساعدك... إبراهيم زي ابني، وبيحبك مش بس لأنه خطيبك... بس ما تخليهوش يزورني بنفسه، وأنا حاقول له كل حاجة عن طريقك..." وكلام كثير كده مش فاهمة منه حاجة.

لم أستطع أن أبدي اندهاشي مما قالته، ولكنني تماسكت وقلت:

– إنتِ عارفة بابا من ساعة ما دخل المستشفى وهو بيقول كلام غريب في الفترات القليلة اللي كان بيفوق فيها.

– أنا فاهمة، لكن المرة دي كانت طريقته غريبة، أول مرة يبص لي بنظرة الحنية دي؛ كأنه كان بيعتذر لي عن حياتي كلها معاه، وفي آخر كلامه قال أنا آسف يا بنتي، سامحيني؛ أنا ظلمتك.

كادت أعصابها تخونها، وانسابت من عينيها دمعة حارة، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وجففت دموعها وقالت لي في حدة:

– فيه حاجة كان بابا بيحاول يقولها لي، كلامه ماكانش مجرد تخريف، حاتساعدني ولَّا لا؟

– أساعدك في إيه؟ مش لما أفهم إيه الموضوع؟

– إنتَ كنت ماسك كل الشغل على الكمبيوتر مع بابا، وأكيد فيه حاجة هنا ممكن تساعدني فيها.

– يمكن كان يقصد الكمبيوتر الشخصي بتاعه، اللاب توب يعني؟

– لأ، كرر مرتين أنه الكمبيوتر اللي في المركز هنا، يعني ده.

– قال الكمبيوتر اللي في مكتبي، ولَّا إلى في المركز؟

– متهيأ لي قال الكمبيوتر اللي في المركز.

– كده معقول أكثر، يبقى إنتِ بتدوري في المكان الغلط، الكمبيوتر ده فيه معلومات مالية وتجارية، ويُعْتَبر جزء من الشبكة في المركز، ومافيهوش حاجة ممكن تهمك، إنما فيه كمبيوتر في المعمل الرئيسي تحت ماحدش ممكن يدخل عليه غير والدك وأنا.

– طيب يلا بينا.

– على فين؟

– على المعمل الرئيسي.

– نعمل إيه هناك؟

قالت بعصبية:

– نشوف الكمبيوتر اللي بتقول عليه.

– ما أقدرش أفتحه.

– أنت مش لسه بتقول ماحدش يقدر يفتحه غيرك أنت وبابا؟

– أنا علشان أفتحه لازم ياسين بك الأول يدخل كلمة السر الخاصة بيه، وبعدين أدخل أنا كلمة السر بتاعتي، ومن غير الترتيب ده ما يفتحش.

– يعني إيه؟ ما ينفعش تدخلوا عليه إلا مجتمعين؟

– لأ؛ هو كان ممكن يدخل عليه لوحده، لأنه عارف كلمة السر بتاعتي، إنما أنا ما أعرفش كلمة السر بتاعته!!

***

لم يكن ياسين عبد القادر مقتنعًا بالحجج التي ساقها المدافعون عن بناء المصنع في بلدته على كثرتهم، وبدأ في البحث والتحري عما حدث لاقتناعه أن وراء المشروع مؤامرة وراءها العمدة وأعوانه، رغم أنه لم يجد من يكذب ما قِيل له؛ إلى أن دق على بابه ذات صباح أحد أقاربه، وطلب الحديث معه، وما إن جلسا معًا حتى بادره قائلًا:

– إيه يا عم ياسين مالكش أسبوع في البلد، وكل ما أقعد في قعده لازم تيجي فيها سيرتك. بقيت ولا بتوع السيما.

– يا سلام! وعلى إيه ده كله؟

– البلد كلها مالهاش غير سيرة المصنع والتلويش والربو اللي بييصيب الناس، كأنها حملة قومية.

– وإنتَ، يعني مش مقتنع إن المصنع له علاقة بكل ده؟

– يا عم؛ حالات الربو اللي بتقول عليها دي عددها لا يُذْكَر، وكلها ناتجة من سوء التغذية.

– والسل برضه؟

– يا عم ياسين؛ الدكاترة اللي جم من وزارة الصحة عاينوا الحالات دي كلها، وقالوا إنها حالات منفصلة، ومافيش رابط بينها، وما فيش شبهة وباء، إنت بس اللي مكبر الموضوع.

– إيش حال يعني لو مكنتش متعلم وخريج كلية علوم؟ سيبت إيه للجهلة؟

– يا ساتر عليك؛ كلامك بينقط سم، وبما إني خريج علوم، بأقول لك إن المصنع معمول له كافة الاحتياطات علشان الأبخرة بتاعته ما تأثرش على الصحة، نظام فلاتر على أعلى مستوى متكلف ألوف الجنيهات.

– وإنتَ عرفت الكلام ده إزاي؟

– ما هو أنا باشتغل في المصنع يا ابني، إنتَ ما تعرفش ولا إيه؟

– لأ؛ الحقيقة ما كنتش أعرف، إنما مش غريبة؛ ده أنا لاقي نص البلد شغالة في المصنع. إنما الغريبة إنك عمرك ما قلت لي الحكاية دي في جواباتك!

– أنا لسه متعين ما بقاليش شهور.

– طيب يا متعلم يا بتاع العلوم؛ عمرك سمعت عن مصنع كيماويات يتعمل في قلب أراضي زراعية وعلى النيل؟

– كيماويات؟ مين قال إنه مصنع كيماويات؟

دُهِش ياسين ولم يفهم، فأكمل صاحبه:

– يعني سكت؟! يعني إنتَ كمان مش عارف المصنع بيعمل إيه أصلًا.

– طيب فسر لي المدخنة اللي في آخر المصنع دي والأبخرة اللي طالعة منهم بتاعة إيه؟ أنا لسة شايفها امبارح بنفسي.

– وده هو الموضوع اللي جايلك علشانه النهار ده، المهندس بهاء جعفر كان عايز يقابلك.

– مين بهاء ده؟

– ده مدير المصنع والعضو المنتدب لشركة "ليراس".

***

أقامت السيدة سهير سياجًا حديديًّا على غرفة ياسين عبد القادر؛ غير مسموح بتجاوزه إلا بمعرفتها، وتواجدها الشخصي طوال فترة الزيارة؛ حتى لأقرب المقربين، مما أثار حنق الجميع، وعلى رأسهم شركاؤه في المركز وأعضاء مجلس إدارته.

كان نبيل الشيمي أول من فقد أعصابه عليها، وصاح فيها قائلًا:

– هو إيه الحكاية، ده ولا كأننا عيال بنشتغل عندك، مش ناقص غير توقفينا طابور، وكل واحد يدخل عليه تاخدي إيه من إيده وتديله شوكولاته، ولما يغلط تضربيه على إيده.

توجهت بالحديث إلى أسعد مندور نائب رئيس مجلس الإدارة، وأقرب المقربين لياسين، وأكثرهم هدوءً وتعقلًا:

– أسعد بك، ما يرضيش حضرتك الكلام ده.

نظر إلي بطرف عينه وبدا عليه عدم الارتياح لوجودي في هذا الموقف وقال مشيرًا للشيمي.

– مش وقت الكلام ده يا نبيل، من حق مدام سهير برضه تضمن راحة الريس، ودي في النهاية تعليمات الدكاترة.

انسحبت في هدوء متجهًا لكافيتريا المستشفى، وعند خروجي من الصالون الملحق بغرفة ياسين عبد القادر كدت أصطدم بهناء، فجذبتها من يدها بعيدًا حتى لا تدخل عليهم وهم على تلك الحال، وما إن وصلنا لآخر الردهة المؤدية إلى السلالم حتى سمعت صوت باب المصعد يُفْتَح من خلفي والتقت، فوجدت أحمد قاسم خارجًا من المصعد متجهًا إلى الغرفة فقلت هامسًا: "كملت"...

سمعتني هناء؛ فقالت:

– هي إيه اللي كملت؟ وواخدني بسرعة كده ورايح على فين؟

– لأ؛ أصل فيه معمعة جوه ومالوش داعي وجودك دلوقت.

– آه؛ همه شبطوا في بعض؟ كنت متوقعة كده في أي لحظة.

– بس مش ثلاثة ضد واحدة يبقى ظلم شوية؟

– واحدة؟ دي تأكلهم على قطمة واحدة.

– لأ؛ الشيمي وقاسم يمكن، إنما أسعد باشا ده زميل كفاح أبوكِ ما يتخافش عليه... الغريب إن الثلاثة أساسًا ما بيطيقوش بعض إنما امرأة أبوكِ قدرت توحدهم الحقيقة.

– إنت تعرف مين الوحيد اللي كان يقدر يلم الست دي؟

– مين؟

– أنكل جميل.

– جميل مين؟

– الدكتور جميل الحسيني، إيه ما سمعتش عنه؟

– آه؛ ده اللي كان شريك والدك، وانفصل عنه من زمان، والدتي كانت بتقول عنه إنه كان عنيف جدًّا، ووالدك نفسه كان بيعمل له حساب.

– ماكانش عنده غير الأبيض والأسود، الرمادي ده مايعرفوش، وكان بيلوم بابا دايمًا إنه دبلوماسي وبيرضي جميع الأطراف.

– مجموعة غريبة، ساعات بأحس إنهم بيديروا مركز مخابرات عسكرية مش مركز أبحاث.

– ما تنساش أنه مركز عالمي، وأصوله وصلت لعشرات الملايين.

– ملايين؟ تقصدي بلايين...

– مش للدرجة دي، بلاش مبالغة.

ابتسمت دون أن تلاحظ، وتأكدت أنها لا تدرك حجم الإمبراطورية التي يتحكم بها هؤلاء الناس. التفتت إلي بعد ذهاب الجرسون، وقالت وقد ظهر الجد على وجهها:

– وبعدين تعالى، إنت أخذتني في دوكه، امبارح بالليل كان تليفونك مقفول على طول، كنت فين؟

– آه؛ أنا فعلًا امبارح نمت بدري.

– كنت عايزة ضروري أشوفك امبارح، عندي حاجة مهمة كنت عايزاك تشوفها، وبصراحة أنا جيت المستشفى مخصوص علشان أوريها لك، بابا أصر إني أديها لك في إيدك من غير ما حد يعرف نهائي.

– هي إيه دي؟

تلفتت حولها وقالت:

– مش هاينفع هنا، يلا بينا.

***

دخل ياسين عبد القادر من بوابة الشركة مع قريبه؛ الذي لا أذكر اسمه أو الذي تعمد هو عدم ذكر اسمه كلما كان يروي ذكرى أول زيارة له لمصنع شركة ليراس، كانت تبدو عليها من أول وهلة كأنها ثكنة عسكرية على حد وصفه، حيث أفراد الأمن منتشرون في كل مكان من البوابة وحتى باب الإدارة.

لم يكن إلا مبنى إدارة بسيط، ولا يوجد به مظاهر البهرجة كعادة الشركات الأجنبية في ذلك الوقت، وإنما كان نظيفًا وعمليًّا إلى أقصى حد.

قابلتهم سكرتيرة حادة الملامح قصيرة الشعر؛ حتى إنه لم يميز للوهلة الأولى ما إذا كانت رجلًا أو امرأةً.

تبادلت بعض الكلمات بالإنجليزية مع قريبه، وتقدمت أمامهم في اتجاه غرفة في آخر الممر؛ كُتِب على بابها حرفان "BG"، وأدرك على الفور أنها تمثل الحروف الأولى من اسم بهاء جعفر... نقرت على الباب وفتحته، وأشارت إليهما بالانتظار قليلًا، وأغلقت الباب خلفها. لم تمر لحظات حتى فتحت الباب مرةً أخرى، وأشارت لهما بالدخول.

كان مشهدًا وصفه ياسين عبد القادر عشرات المرات، فقد كان مكتبًا فسيحًا جدًا؛ يزيد طوله عن خمسين مترًا، ولا يقل عرضه عن عشرة أمتار، لم يستطع أن يتبين شكل الأثاث؛ فقد كان الضوء خافتًا يكاد يكون مظلمًا، ولا يوجد في الغرفة أي إضاءة سوى المنبعثة من أباجورة كبيرة على مكتب كبير في نهاية الغرفة؛ جلس وراءه بهاء جعفر.

لم ينكر ياسين بك أنه لم يتمالك شعوره بالرهبة، وأحس أنه قطع المسافة بين الباب والمكتب في أكثر من عشرة دقائق، وما إن وصل أمام

المكتب حتى أطل بهاء جعفر بوجهه فظهر جليًّا في ضوء الأباجورة: كان ذا وجه مستدير يعلوه شعر كثيف، وبشرة تميل للون القمحي.

قام من مجلسه ومد يده مصافحًا ياسين، وأشار له بالجلوس دون أن يلتفت لقريبه الذي استأذن بالانصراف، وبادره بالكلام وهو يبتسم ابتسامةً؛ لم يستطع في أي يوم من الأيام أن يفسرها أو يشرحها:

– باشمهندس ياسين عبد القادر، زي ما اتصورتك بالضبط.

لم يستطع ياسين الرد على الرغم من جرأته وحماسه المندفع، وبدا عليه الاندهاش.

فأكمل بهاء:

– لمعة عينيك بتفكرني بشبابي، ولو إن فرق السن بينَّا مش كبير، إنما مش ده المهم أنا اتخيلتك أطول من كده، وده موضوع مقلق.

ابتسم ياسين باندهاش ولكن بهاء لم يمهله قائلًا:

– طبعًا مستغرب الملحوظة دي من واحد قصير زي حلاتي، أنا باقلق دايمًا من كل من اقترب من الأرض، وإلَّا إنت إيه رأيك؟

– يعني ما أقصدش.

– المهم، إنت إيه بقى مشكلتك يا باشمهندس؟

– تقصد إيه حضرتك؟

– سيبك من حضرتك وسيادتك أنا مهندس زي حلاتك، يعني زمايل كار واحد، مش بيقولوها كده في مصر؟

– في مصر؟ هو حضرتك مش من مصر ولا إيه؟

ضحك بهاء جعفر ضحكةً مجلجلةً وقال:

– إنت افتكرت إني مصري؟

– لهجة حضرتك مش ممكن تقول غير كده.

– أنا عشت هنا أكثر منك، واتخرجت من نفس الجامعة اللي إنت اتخرجت منها... المهم إيه اللي تاعبك من المصنع بتاعنا يا ياسين؟

بدأ ياسين يستعيد توازنه، فقال:

– حضرتك مش شايف، بما إنك في نفس الكار، إن مصنع كيماويات في منطقة ريفية وعلى النيل موضوع مقلق لصحة الناس، ده غير الزراعات...

– مصانع كيماويات؟ مين اللي قال لك الكلام ده يا بني؟

– أمال ده مصنع إيه بالضبط؟

– طيب ومش عيب يا باشمهندس تهاجم مشروع مش عارف هو إيه أصلًا؟

لم يمهله بالكلام وأردف:

– إنت سمعت عن ورد النيل يا باشمهندس؟

– آه طبعًا.

– وعارف المشاكل اللي بيعملها لما بيتجمع، خصوصًا للملاحة في النيل؟

– أيوه.

– لحد الآن المصريين ما يعرفوش من ورد النيل إلا مشاكله، إنما ما يعرفوش ممكن نستفيد منه قد إيه... ورد النيل ده نبات زي أي نبات مليان بجميع العناصر، وفيه عالم إنجليزي عمل أبحاث معملية كثير؛ واتولدت عنده قناعة إنه ممكن يكون مصدر لسماد عضوي نباتي مفيد للتربة، وبديل صحي للسماد العضوي الحيواني...

ومن هنا نتجت فكرة المصنع ده؛ اللي كان من الطبيعي إنه يكون في أقرب مكان من النيل علشان نقلل تكاليف النقل، وكمان اختياره في موقع بيتوفر فيه ورد النيل بكثرة...

وحضرتك يا باشمهندس ماكلفتش خاطرك إنك تعرف المشروع ده إيه هدفه رغم أنه كله فوايد لبلدك، وأعلنت عليه الحرب من غير ما تعرف عنه أي حاجة...

اندهش ياسين من كلام بهاء، ولكنه لم يستسلم بسهولة وقال:

– لكن واضح إنكم بتعملوا عمليات معالجة، ما اعرفش، إذا كانت كيميائية أو حرارية بدليل المدخنة الكبيرة إللي في آخر المصنع، واللي

أكيد كانت السبب في ظهور الحالات المرضية اللي أول مرة تظهر في البلد، مش برضه الشواهد دي تقلق يا باشمهندس رغم نبل نوايا المشروع اللي حضرتك بتشرحها؟

ابتسم بهاء ابتسامةً خبيثةً وقال:

– أنا قلت في الأول إنك مش سهل تقتنع بالكلام... متهيألي لازم نعمل مع بعض جولة في المصنع، وأشرح لك كل حاجة على الطبيعة.

***

أخرجت من حقيبتها ساعة يد ومعها ورقة صغيرة مطوية وقدمتها لي... فتحت الورقة، ولم أجد فيها سوى الرقم 7 مكتوب بخط مرتعش... نظرت إليها وقلت:

– إيه ده؟

– نعم؟ إنت كمان هاتقول لي إيه ده؟ أنا من امبارح ما نمتش وافتكرت أول ما تشوف الحاجات دي حاتفاهم.

– هي دي الحاجات اللي والدك إدهالك، وقال لك تديها لي في إيدي من غير ما حد يشوفها؟

– أيوه.

– طيب قال لك إيه ثاني؟

– ولا أي حاجة، قال لي أنك حاتفهم.

نظرت إلى الساعة وقلبتها بين يدي، كانت مجرد ساعة رولكس عادية؛ طالما رأيتها على معصم ياسين بك، ولم يكن مكتوبًا على ظهرها سوى طباعة المصنع، ونظرت مرةً أخرى إلى الورقة، فلم يكن فيها أي شيء سوى الرقم 7؛ الذي قصد على ما يبدو أن يكتبه باللغة الإنجليزية حتى لا يلتبس مع الرقم 8.

صرخت في فجأة قائلةً:

– يمكن الورقة دي مكتوب عليها حاجات بالحبر السري؟

فكرت قليلًا، وقلت:

– الحبر السري ده عايز تجهيزات، ومش ممكن في حالته دي يكون قدر يكتب على الورقة دي من غير ما مدام سهير تحس ولا تشوفه وهو بيكتبها، ثم رقم 7 كاتبه بالعافية.

– الله، يعني لو الوضوع مش سيم بينكم؛ أمال كان حريص إنه ما حدش يشوفه وهو بيديهالي ليه؟

كان معها حق فيما تقول، فلم يكن بيني وبين ياسين عبد القادر شيفرة مشتركة، حتى أنه كان حريصًا كل الحرص على عدم اطلاعي على كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر.

نظرت إلى الساعة مرةً أخرى، ولفت نظري شيء غريب نسبيًا، وقلت لها:

– أنا مش عارف إذا كان الموضوع ده مقصود ولا لأ، إنما إنتِ مش ملاحظة إن الساعة واقفة على تسعة بالضبط.

أخذتها من يدي، ونظرت إليها وقالت بسرعة:

– أيوه، عقرب الدقائق على اثناشر تمام، وكمان عقرب الثواني، معقولة الساعة تقف بالملي كده؟ وكمان الساعة دي بمجرد هزها بترجع تشتغل، دي ميتة!

– بس لو قاصد يوقفها على ساعة محددة كده، ما كتبش الرقم 9 على الورقة ليه؟

– وإيه علاقة ده بالرقم 7 المكتوب على الورقة؟

– يعني عندنا ثلاث حاجات، الرقم 7 وساعة ودي أكيد مقصودة بذاتها، والرقم 9 أو الساعة تسعة، والمفروض إني أفهم هو عايز يقول إيه!

– استنى فيه حاجة كمان، بعد ما ادالي الحاجات دي قال لي، خليه يرد علي بالنتيجة بتاعته بسرعة.

– يا سلام، قال يعني كده أنا فهمت.

***

حرص بهاء جعفر أن يطلع ياسين عبدالقادر على كل شبر في المصنع، بدء من أقسام المبنى الإداري غرفةً غرفةً، ثم منطقة استقبال

ورد النيل مرورًا بمنطقة التخلص من المياه الزائدة، فعمليات الفرز ثم التجفيف ثم التخلص من الأجزاء غير المرغوب فيها، وأخيرًا الحاويات الضخمة التي يتعرض فيها المنتج للحرارة والضغط لتحويله إلى سماد يصلح للأرض... وهنا توقف بهاء بهاء جعفر مخاطبًا ياسين:

– وهنا زي ما إنت شايف؛ المدخنة الكبيرة اللي بيخرج منها بخار المياه، يعني مش غازات، ولا انبعاثات ولا كلام من ده.

ابتسم ياسين قائلًا:

– بس حضرتك ماورتنيش بتعملوا إيه في الأجزاء اللي بتفصلوها، وقلت إنها أجزاء غير مرغوب فيها، وما بتدخلش في عمليات التصنيع.

ابتسم بهاء بخبث وقال:

– أنا ما ورتكش لأني متأكد إنك كنت حتسأل. دي ببساطة مش أكثر من مخلفات نباتية، وزي ما الفلاحين بيخلصوا من قش الرز لأنه مالوش قيمة اقتصادية، بنخلص منه بنفس الطريقة...

– يعني بتحرقوها؟

– عادي، ودي كمان فيها مشكلة؟ الفلاح المصري بيحرق مخلفات الحقل من آلاف السنين.

– بس، إحنا ما نعرفش نواتج حرق ورد النيل.

– بأقول لك إيه، بدل المقاوحة، ما تيجي تشتغل معانا وتعمل دراسات بنفسك على الموضوع ده.

– أنا؟ أنا أشتغل معاكم.

– يا سلام، يا أخي بيقولوا خير لك أن تضيء شمعةً من أن تلعن الظلام، ولا إيه؟

– يعني أنا لسه مش مقتنع أوي، مازالت الخامة اللي بتشتغلوا عليها في إطار الأبحاث ومش معروف لسه كل الجوانب المتعلقة بيها.

– ده صحيح، وعلشان كده النواتج من الأسمدة مانستخدمهاش مع أرض الوادي، إنما في المنطقة الصحراوية البعيدة، إنما المشكلة إن المساحة اللي بتملكها الشركة صغيرة.

– صغيرة؟ انتم لسة عايزين أرض ثانية؟

– طبعًا مش لازم مساحات أرض نجرب فيها السماد وتركيزات مختلفة، ومخلوط بسماد حيواني... الخ... الخ.

– بس حضرتك، مش ملاحظ إن عمليات التصنيع كلها من أولها لآخرها مش واخدة أكثر من عشرة في المية من إجمالي مساحة المصنع؟

– إيه يا باشمهندس، دي وحدة مصغرة إنتاجيتها لا تُذْكَر، والناتج منها ما بيزدش عن ربع طن في اليوم، المصنع مصمم إنه ينتج عشرين طن في اليوم.

– وفين المعدات اللي حاتنتج الكلام ده؟

– حاتوصل في البحر بعد شهرين، وعلى ما بال ما تركب وتشتغل وتبتدي تنتج مش أقل من سبع شهور على الأقل، يا دوب نكون اتأكدنا من سلامة المنتج، وإنه مالوش أضرار على الأرض، ولا على المنتجات الزراعية...

– كل ده في سبع شهور بس؟

– إنت ناسي إن احنا بقالنا أكثر من سنة شغالين في تجارب، ده غير الأربع سنين اللي اشتغلهم البروفيسور في معمله في إنجلترا... هه؛ قلت إيه تيجي تشتغل معانا؟

– موضوع الشغل معاكم عايز تفكير، لأني محتاج أطمن إن المصنع مالوش علاقة بالأمراض اللي ابتدت تظهر في البلد بدون سابق إنذار.

– أنا قلدت من الأول إنك حاتتعبني، وعمومًا يا سيدي المصنع تحت أمرك في أي يوم عايز تزوره، وأدي الكارت بتاعي اتصل بي في أي وقت وخذ الخامات...

والنواتج اللي إنت عايزها لو عايز تحلل أي حاجة، وتستشير فيها خبراء كمان، ده غير إني حاوريك دلوقت لما نرجع المكتب ملفات كاملة عملها دكاترة متخصصين، وأكدوا عدم وجود أضرار على صحة البشر.

نظر ياسين إلى الكارت الذي قدمه له بهاء، وقرأه بسرعة وقال:

– إيه شركة "ماس" اللي مكتوبة في الكارت، وشفتها على اليافطة الخارجية تحت اسم المصنع؟

– ماس دي الشركة الأم؛ اللي بتضم مجموعة شركات صناعية؛ منها شركة ليراس.

– وحضرتك بتعتبر ممثل لشركة "ليراس" ولا "ماس" الأم؟

– إنت عايز تعرف كل حاجة من زيارة واحدة؟ تعال نرجع المكتب؛ زمانك تعبت من الجولة، وأنا حافهمك كل حاجة.

***

كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا، ولكنني لم أستطع الانتظار؛ فطلبت رقم هناء من هاتفي المحمول، وكان هذا اتفاقنا في آخر مرة ألا نتصل ببعضنا البعض إلا عن طريق المحمول أو وجهًا لوجه، خاصةً أن ياسين بك طلب من هناء ألا أزوره في غرفته أبدًا، لأن ذلك سيلفت انتباه من حوله، فنقل إلينا إحساسًا مريبًا بأنني قد أكون تحت رقابة من حوله.

ردت هناء وهي نصف نائمة:

– ألو.

– هناء، صحصحي معايا شوية، مش عارف إذا كنت وصلت لحاجة في اللغز بتاع أبوك.

- لغز إيه يا ابني هي الساعة كام دلوقت؟

ثم بدا عليها إنها أفاقت فقالت بسرعة:

- بجد، فهمت حاجة من موضوع الساعة ده؟

- أنا بقالي أكثر من أربعة وعشرين ساعة ما نمتش، بس أنا مش متأكد مية في المية إذا كان اللي فهمته ده مضبوط ولا لأ، أنا بمعلوماتى إن والدك مهتم بموضوع الشيفرات والأكواد السرية من زمان، وعنده كتب كثير في مكتبته عن الموضوع، وجايز يكون هو ده اللي قصده.

- مش فاهمة، طيب وحانتأكد إزاي؟

- بصي؛ قولي له إن النتيجة بتاعتي "ثلاثة"

- ثلاثة؟ يعني إيه ثلاثة؟

- يعني الرقم 3 "ثري" بالإنجليزي، لو كان ظني مضبوط حايرد عليكِ بحاجة مكتوبة، اسم، جملة، صفحة كتاب، أي حاجة، ساعتها حاتأكد أن اللي في دماغي مضبوط.

- والله ما أنا فاهمة حاجة، عمومًا حاقول له.

***

حاولت هناء أن تكون أول الحاضرين إلى المستشفى حتى تنفرد بأبيها، ولكنها فُوجِئت بمدام سهير في الصالون الملحق بالغرفة ومعها أسعد مندور، وقد بدا عليها الانفعال الشديد وسمعتها، وهي تقول له:

– أنا يا أسعد بك بيتهموني الاتهام ده؟ والاتهام يجيني منكم انتم؟

توقفت عن الحديث ما أن شاهدت هناء، وحاولت أن تكتم انفعالاتها، وقالت لي هناء فيما بعد إنها لم تظهر؛ إنها سمعت جملتها الأخيرة، وحيتهم واستأذنت في الدخول إلى غرفة والدها متوقعةً أن مدام سهير ستكمل حديثها معه ولو همسًا...

وصدق ظنها، فقد حاولت الاستماع لحديثهم وهي في غرفة والدها، ولكن عبثًا وعلى الرغم من انزعاجها مما سمعت إلا أنها كانت تعلم أن الخلافات بينهم أصبحت على أشدها، والاتهامات أصبحت متبادلةً بين سهير من جهة وشركاء والدها من جهة أخرى...

توجهت إلى الكرسي بجانب سرير والدها، وجلست بجانبه وطبعت على جبينه قبلةً؛ ففتح عينيه، ونظر إليها بابتسامة واهنة، فقالت له على الفور:

– بابا، إبراهيم بيقول لك إن النتيجة اللي طلعها "ثلاثة"...

ابتسم والدها، وهز رأسه قائلًا:

– صدق ظني إنه كان مهتم بموضوع الشيفرات، وكان بيقرأ كتبي من ورايا. طيب اسمعي؛ هاتي ورقة وقلم واكتبي الحروف الأبجدية بالإنجليزي من الشمال لليمين وبالحروف الصغيرة من a إلى z...

فعلت وقدمتها له، فقال لها:

– طيب؛ اقطعي ورقةً ثانيةً من عندك، واكتبي عليها الحروف برضه من الشمال لليمين بس بالحروف الكبيرة من A إلى Z...

كتبتها وأعطتها له، فوضع الأولى أسفل الثانية وحركها بضعة سينتميترات وقال:

– طيب اكتبي الحروف اللي حاقول لك عليها في ورقة ثانية من عندك وبالحروف الكبيرة: JEHABHKSAN...

ثم طلب منها إعادة الحروف عليه، وهوينظر للورقة التي معه، ثم قال لها بعد أن انتهت:

– حطي الورق كله في الشنطة، ولما تطمني إنك لوحدك في البيت أو أي مكان احرقي الورقتين اللي عليهم الأبجدية، وإدي لإبراهيم الورقة الثانية؛ بس اللي عليها العشر حروف وهو حايفهم. واوعي تقع في إيد حد!

***

حرص ياسين على قراءة كل التقارير الطبية والصحية وإجرءات السلامة المتبعة في المصنع والموجودة في الملفات في غرفة مكتب بهاء جعفر.

كان كل شيء معدًّا بعناية فائقة واستفاضة؛ لم تترك شاردةً ولا واردةً إلا أحصتها. وما إن انتهى حتى هز رأسه متمتمًا: "Too good to be real"، وقال:

– تقارير ما فيهاش الهوا، معقول فيه حاجة ما فيهاش غلطة بالمنظر ده؟

– يا أخ ياسين إحنا مابنلعبش، والنظام الأوربي كله قائم على الدقة المتناهية في التخطيط، مافيش حاجة متروكة للظروف أو الصدفة، كل شيء مدروس. هنا حاتتعلم الهندسة على أصولها، وحاتفهم أن العلم اللي اتعلمته في الكلية مجرد نقطة في بحر، ده بخلاف إننا حانبعتك بعثة تدريبية لإنجلترا وتشوف نتائج الأبحاث المعملية اللي سبقت فكرة المشروع ده، وإذا لاقيناك كويس ممكن نوديك أمريكا وتعرف آخر التكنولوجيات اللي وصل لها العالم...

– عمومًا أنا محتاج وقت أفكر، وأوعدك إني حارد عليك في أقرب فرصة.

– معاك أسبوع فكر على مهلك، إحنا حاليًا بنعين مهندسين وعمال علشان لازم نبدأ فترة التدريب بوقت كافي قبل وصول المعدات.

– وهو كذلك.

وما إن تم جملته حتى سمع نقرًا على الباب، وفتحت السكرتيرة الباب وأدخلت قريب ياسين عبد القادر الذي حضر معه، فقام ياسين وصافح بهاء جعفر وخرج...

–هه؛ يا سيدي، اطمنت بنفسك وشفت كل حاجة على الطبيعة؟

– الحقيقة كل حاجة واضح إنها معمولة بدقة، بس يا أخي أنا برضه محتاج أشوف أهل الناس اللي اتصابوا علشان أتأكد إنه ما فيش علاقة بين المصنع والحالات المرضية.

– ابحث زي ما إنت عايز، وما تخليش الفرصة دي تضيع من إيدك، فرص الشغل مش كثير اليومين دول، والناس دي فلوسها حلوة.

لفت نظره وهو متجه إلى بوابة المصنع الخارجية أحد العمال وهو يرمقه بنظرة حادة، وظل متابعًا لهما حتى اختفيا عن نظره...

***

جاءت هناء في الموعد الذي اتفقنا عليه في الكافيتريا التي اعتدنا اللقاء فيها. دخلت وهي تتلفت حولها متفحصةً وجوه الرواد، ثم استقرت على الكرسي أمامي، فقلت:

– مالك يا بنتي داخلة وكإنك عاملة عملة؟

– مش عارفة؛ بابا حاطني في حالة توتر كإني باشتغل في المخابرات.

– ما هو عارف حبك للمغامرات، وبيحاول يشبع هوايتك.

– طيب بلاش لماضة، وشوف دي تطلع إيه.

قدمت لي الورقة المكتوب عليها الحروف العشرة (JEHABHK-SAN)... أخرجت ورقةً وقلمًا وبدأت أكتب الأبجدية بالإنجليزي.

a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z

A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z

قاطعتني قائلةً:

– يا ريتني كنت خليت الورقتين إلى كتبتهم، بابا خلاني أكتب الحروف بنفس الطريقة دي، بس قال لي أحرق الورق قبل ما أجيلك.

– ياه، باباكِ عامل تدابير أمنية شديدة جدًا، رغم أن الورقتين حتى لو وصلوا لإيد حد؛ صعب جدًّا يفك الشيفرة.

– طيب المهم؛ وصلت لإيه؟

– الحرف الأول J مقابله n

الثاني E مقابله i

الثالث H مقابله l

الرابع A مقابله e

الخامس B مقابله f

السادس H مقابله l

السابع K مقابله o

الثامن S مقابله w

التاسع A مقابله e

العاشر N مقابله r

يبقى عندنا (nile flower)...

ورد النيل؟! اسم سهل قوي، أنا كنت واثق إنه بيستخدم كلمة سر غريبة مش سهل توقعها، على الأقل مش للدرجة دي

– وده يعني إيه بقى؟

– أكيد دي كلمة السر اللي ناقصانا علشان ندخل على الكمبيوتر اللي في المركز.

– يا سلام، يعني أنا عمالة رايحة جاية بينكم وأنتم من غير ما تشوفوا بعض وصل لك كلمة السر وأنا مش فاهمة أي حاجة.

– والدك ده عبقري يا نونة، وصل لي المفتاح بواحدة من أعظم طرق التشفير في تاريخ البشرية وبشكل سلس وبسيط، ومش بس كده بقى بيني وبينه مفتاح شيفرة ممكن نستخدمه أنا وهو في أي وقت وبمنتهى الأمان. نموذج يدرس!

– طيب وممكن تفهمني بقى عملها إزاي بعد قصيدة الشعر دي بدل ما أنا عاملة زي الأطرش في الزفة.

– حافهمك كل حاجة بس خلينا نحرق الورق ده فورًا، وقومي بينا على مكتبي في معمل التحاليل وحاشرحلك كل حاجة.

***

سمع ياسين طرقًا على الباب، وكانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً... لم يكن الطارق أحد معارفه، بل إنه وجه لم يره من قبل، قال بلهجة جازمة:

– باشمهندس ياسين، ممكن أقعد معاك شوية؟

– مين حضرتك؟

– أنا جميل الحسيني، والدي كان من أعز أصحاب المرحوم والدك.

– الحاج حسيني، يا أهلًا وسهلًا، اتفضل، كنت باسمع والدي بيتكلم عن والدك كثير، تشرب إيه؟

– ولا حاجة، أنا مش جاي أتضايف، همه كلمتين عايز أقولهم لك.

– اتفضل، قلقتني.

– أكلوك الطاطورة؛ مش كده؟

– نعم؟ طاطورة؟!

– ما تأخذنيش يا ياسين يا أخويا، أنا ساعات ألفاظي بتبقى ناشفة شوية... باختصار أنت لما جيت البلد اتوسمنا فيك خير، وأنا كنت مرتب لمقابلتك، لكن سبقني الجعفر، وعمومًا يمكن كده أحسن إنت كنت جاي البلد على ملا وشك، وكلك حماس على حسب ما سمعت إنك تساعدنا نتخلص من البلوى اللي اتبلينا بيها من ساعة ما المصنع ده اتعمل...

– أساعدكم؟ أنتم مين؟

– بعدين حاتعرف، ما تستعجلش على رزقك. طبعًا همه أخدوك وفرجوك على المصنع، ووروك إن كل شيء على مايرام زي الكتاب ما بيقول، وكمان أقنعوك إنك تشتغل معاهم؛ مش كده؟

– مش بالضبط.

– وشك كان باين عليه إنك مقتنع لحد كبير، وإنت خارج من المصنع، بخلاف شكلك وإنت داخل المصنع.

– إنت كنت هناك؟

– لأ، زميلنا كامل الأشرم، متهيألي إنت لاحظت إنه كان بيبصلك وإنت خارج.

– أيوه فعلًا، بس أنا ما أعرفوش.

– بس هوعارفك كويس. المهم شفت المزارع اللي ورا المصنع؟

– هو الحقيقة شاور لي عليها لكن ماوصلتش لحد هنالك.

– وطبعًا فهمك إنه بيجربوا فيها السماد الناتج من معالجة ورد النيل؟

– بالضبط!

– وماجابش سيرة مخلفات الورد بيعملوا فيها إيه؟

– قال لي بيحرقوها، ده موضوع قلقني الحقيقة لأني ما شفتش بيحرقوها فين وإيه اللي ناتج منها.

ابتسم جميل بسخرية:

– طبعًا مفهوم... وشفت المعمل الصغير في الناحية القبلية؟

– أيوه شفته.

– ما لاحظتش إنه فيه باب كبير مقفول جوه المعمل.

– أيوه متهيألي.

– وقالوا لك إنه فيه الكيماويات والمستلزمات اللي يحتاجها المعمل علشان يعملوا تجارب على الأسس العلمية السليمة؟

– بالضبط.

– عايز تعرف يا باشمهندس المصنع ده بيعمل إيه بالضبط؟

– أكيد.

– وتوعدني إن الكلام اللي حأقوله لك يفضل بيننا إحنا الاثنين لحد ما تقابل باقي الزملاء؟

– لكن لازم يكون فيه دليل على كلامك.

– حاوريك كل شيء بعينك. إيدك في إيدي نقرأ الفاتحة.

***

جلست هناء أمامي، ووقفت أمامها على السبورة في مكتبي بمعمل التحاليل الطبية التي كنت شريكًا به مع بعض أصدقائي قبل التحاقي بالعمل مع ياسين عبد القادر، وكنت أتردد عليه من حين لآخر حتى أختلي بنفسي أثناء تحضيري لرسالة الماجستير.

– هه، عايزانا نبتدي منين؟

– زي ما أنت عايز يا بروفيسور، عايزة أفهم إنتم عملتم إيه بالضبط علشان تتفقوا على مفتاح الشيفرة وكلمة السر، حتى من غير ما تتقابلوا.

– طيب، إحنا قدامنا ساعة قبل ما أروح المركز، وأدخل على الجهاز، هناك ونعرف والدك سايب لنا إيه؛ عايزنا نعرفه من غير ما حد يحس.

– أروح؟ اسمها نروح يا أستاذ.

– لأ؛ وجودك معايا ممكن يثير تساؤلات، واحنا عايزين نمشي كل حاجة من سكات من غير ما نثير الشبهات.

– أوك، اتفضل ابتدي.

– بصي يا ستي... كتابة الرسائل المشفرة ده موضوع موجود من قديم الأزل، وأقدم طريقتين في التشفير كالتالي:

الطريقة الأولى: هي النقل (Transposition)، واسمها الدارج (Anagram) ودي عبارة عن تغيير مكان الحروف في الكلمة الأصلية، يعني إعادة ترتيبها؛ بحيث تكون كلمةً غير مفهومة...

ولو غاوية حل كلمات متقاطعة حتلاقي بعض الأسئلة مكتوب بعدها بين قوسين كلمة ( مبعثرة) يعني حروفها متلخبطة مش في أماكنها الأصلية أو (معكوسة) يعني مقلوبة من الآخر للأول...

الطريقة دي بتكون سهلة الحل جدًّا إذا كانت الكلمة المشفرة صغيرة، لأنه عدد الكلمات اللي ليها معنى ومكونة من حروف قليلة محدود جدًّا، يعني مثلًا ثلاث حروف ممكن تترتب بست طرق مختلفة: حبل، حلب، لحب، ليح، بلح، بحل. إنما طبعًا لما بيزيد عدد

حروف الكلمة الاحتمالات بتبتدي تزيد بشكل لوغاريتمي كبير جدًّا، وبيكون احتمالات إعادة ترتيبها صعب إلا إذا كان الطرفين عارفين الطريقة اللي اتلخبطت بيها...

يعني مثلًا الجملة دي: "أنا قبل ما أشوفك كنت ضايع وما ليش في الدنيا هدف"...

– يا سلام بأ، ده حب بقه!

– لا، له مثال، الجملة دي فيها 37 حرف، وليها أكثر من (50000000000000000000000000000000) طريقة مختلفة لإعادة ترتيبها، ولو استغرق عمل ترتيب واحد مدة ثانية فإننا محتاجين كل البشر ملايين السنين علشان يكتبوا كل احتمالات ترتيب الجملة...

وبالتالي نقدر نقول إن عملية الترتيب العشوائي للحروف بيدينا طريقة آمنة تمامًا؛ لأنه مستحيل فك شفرتها، لكن فيه نقطة ضعف واحدة، لو إن إعادة الترتيب كان عشوائي تمامًا؛ فالمشلكة حتكون بالنسبة لمتلقي الرسالة بنفس الصعوبة على الفضولي أو العدو اللي عايز يفك الشيفرة...

وبالتالي فإن المرسل والمستقبل لازم يكونوا متفقين على طريقة للخبطة الحروف وبالتالي إعادة ترتيبها بعكس الطريقة اللي اتلخبطت بيها...

يعني مثلًا نتفق أن أول وثاني حرف يتبدلوا مع بعض، والحرف الثالث والرابع، وبعدين الخامس والسادس... وهكذا، ولما تستقبلي مني رسالة مشفرة تعملي العكس بالضبط، فتظهر لك الرسالة الأصلية.

الطريقة اللي بنتفق عليها دي اسمها المفتاح (Key)... وعمومًا الطريقة دي تُعْتَبر بدائية نسبيًا، وما أطورتش قوي على مر العصور.

أما الطريقة الثانية هي الإحلال أو التبديل (Substitution)... ببساطة بنتفق إن كل حرف من الأبجدية له مقابل بيحل محله في الرسالة المشفرة فمثلًا، وأول واحد استخدم طريقة التبديل دي كان يوليوس قيصر، ومعروفة باسم طريقة قيصر...

وكان بيعملها بطريقة بسيطة جدًّا، كان بيكتب حروف الأبجدية كلها بالترتيب الأساسي إليها، وبعدين يكتبها تحتها بعد ما يحركها عدد حروف معينة ولتكن مثلًا 3 حروف، يعني A تيجي تحت c.

a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z

النص الأصلي

Y Z. A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X

النص المشفر

ولو عايز أكتب رسالة؛ أقول لك (I love you)... أكتبها (GJMTC WMS)

– بس إنت عرفت منين أن بابا حرك 5 حروف؟ جبت منين الرقم 5؟

– صبرك! واحدة واحدة. المهم إن أسلوب قيصر ده اتطور بعد كده لأن طريقة تحريك الحروف مسافة معينة تبعًا للمفتاح المتفق عليه يخلينا قدام 26 احتمال بس، بعدد حروف الأبجدية الإنجليزية، يعني ممكن ببساطة واحد يجرب مجموعة الاحتمالات كلها ويوصل لأصل الكلمات المشفرة، والتطور الطبيعي كان ترتيب الحروف بطريقة عشوائية، ونكتب قدام كل حرف الحرف اللي بيمثله في الرسالة المشفرة يعني نختار أي مرادف لكل حرف بشكل عشوائي، وكل واحد من المرسل والمستقبل يكون معاه ورقة مكتوب فيها الجدول ده، والشيفرة المكتوبة بالمفتاح ده؛ احتمالات حلها قد الرقم اللي كتبناه ده وقدامه أكثر من 30 صفر.

– علشان كده بابا كان مشدد جدًّا إن كلمة السر الشفرة ماحدش يشوفها أبدًا لأنه وارد إمكان حلها.

– أكيد طبعًا؛ ظروف والدلك ما كانتش تسمح إنه يلجأ للترتيب العشوائي وماكانش قدامه إلا طريقة قيصر بتحريك عدد معين من الحروف، لكن كمان هو كان مطمئن نسبيًّا لأن كلمة السر على الكمبيوتر مسموح لك تجريبها ثلاث مرات بس أكثر من كده بيحصل "بلوك" ويبقى لازم إرسال كلمة سر ثانية خالص علشان نقدر ندخل

على الجهاز، وما فيش مجال لأن حد يجرب 26 احتمال، الكمبيوتر له فوائد برضه.

- طيب كمل.

- المهم، كانت طريقة التشفير دي بشكلها المطور مستحيل حلها من غير الحصول على المفتاح، وكان الهدف كله هو معرفة المفتاح بالتجسس بقه، ياخذوا واحد يعذبوه ويقرروه... المهم إنهم يعرفوا المفتاح اللي من غيره مش ممكن يحلوا الرسالة المشفرة...

وفضلت دي الطريقة الوحيدة للتشفير لأكثر من ألف سنة وماحدش شاغل باله إنه يطور الطريقة دي لأنها ببساطة مستحيلة الحل لحد ما جه واحد من عباقرة التاريخ، ولقى حل يفك به أي شيفرة حتى من غير ما يعرف المفتاح!

- وده مين الجهبذ ده؟

- الكندي!!

- العالم العربي؟!

- هو بعينه، عالم الرياضيات الشهير أبو يوسف الكندي، فليسوف العرب، حل المشكلة ببساطة وبسلاسة عجيبة وخلى طريقة التشفير دي مجرد تاريخ ومن غير ما حد يتعب نفسه في معرفة المفتاح...

- طيب ودي عملها ازاي؟ ولو كده إزاي ما خفتوش إن أي حد يطبق طريقة الكندي، ويفك الشيفرة من غير ما يعرف المفتاح؟ و...

– لأ؛ بأقول لك إيه الوقت سرقنا أنا لازم أمشي دلوقت، دة الوقت اللي متعودين إنهم يشوفوني فيه في المعمل، ومش عايزين نضيع وقت لأني مش عارف همه حايفضلوا قد إيه مش واخدين بالهم من أهمية كمبيوتر المعمل اللي أنا نفسي معرفش مدى أهميته لياسين بك.

– طيب وحاتشتغل عليه إزاي إذا كانوا عارفين إنك ما تقدرش تدخل على الجهاز من غير بابا؟

– في الوقت ده أنا بأبقى في المعمل لوحدي وعندي جهاز الكمبيوتر الخاص بي، وحايبقى عندي فرصة للدخول على الجهاز الرئيسي.

– بس تعرف، أنا ما كنتش عارفة إنك مثقف قوي كده، كنت فاكراك بتاع تحاليل وبس.

– البركة في مكتبة أبوكِ، وبعدين ده موضوع علمي وأساتذته علماء رياضيات وأنا مغرم بالقراية في كافة العلوم و...

– بس، بس ياللا لحسن نتأخر نكمل بعدين...

***

# (2)

من المبادئ المعروفة في علم الحرب أنه إذا تقابل جيشان في ساحة المعركة فإن السيادة تكون عادةً في جانب الفريق الأكثر عددًا... وهو مبدأ أساسي يُعْرَف بـ"مبدأ القوة" بالإنجليزية: (The Principle of Force)... وهو مبدأ منطقي ويتماشى مع قانون الاتزان، فإن زيادة الوزن في إحدى الكفتين يرجح كفتها فورًا ويؤدي إلى خلل الاتزان.

ومع تسليمه بهذا المبدأ فإن كارل فون كلاوزفيتش في كتابه الأسطوري عن الحرب (On War) يقول إن هذه القاعدة تختلف في حد ذاتها إذا كان أحد الفريقين في موقف الهجوم والآخر في موقف الدفاع، فالقوة المهاجمةحتى تنجح يجب أن يكون عددها على الأقل ثلاثة أضعاف القوة المدافعة عند نقطة الهجوم...

ويقول نصًّا "إن الوضع الدفاعي في الحرب هو بحد ذاته أقوى من الهجوم"... والتاريخ العسكري كله يؤيد تلك النظرية، فقد أثبت الدفاع أنه الوضع الأقوى في الحرب. ففي الحرب الكورية فازت أمريكا في الجنوب في الوضع الدفاعي، وهُزِمَت في الشمال وهي تهاجم. وانجلترا لم تنتصر على نابوليون إلا وهي مدافعة في واترلو!

وفي الشطرنج يبدأ كل لاعب بستة عشر قطعة في وضع متزن تمامًا مع الآخر وبعد عدة حركات من كل منهما، وحتى قبل أن يفقد أي منهما أي قطعة تسمع لاعبًا "خبيرًا" يشاهد الدور يقول لك فلان "وضعه" أقوى بكثير من الآخر، أي أن الاتزان قد اختل على الرغم من التساوي في القوة العددية!

هل يمكن أن يكون هناك اتزان بين شيئين غير متساويين في المقدار؟ أو أن يختل اتزانهما رغم تساويهما في المقدار فقط، ولمجرد اختلاف موضعهما؟

لا أدري لماذا روادتني تلك الأفكار الآن وأنا في طريقي إلى هناء، حتى الآن أجد نفسي منساقًا لتوجيه ياسين عبد القادر من خلال هناء، ولم أكن قد رأيته منذ دخوله إلى غرفة الإنعاش في المستشفى، وبدأت أشعر أنني أخطو بكامل إرادتي داخل ساحة معركة، ولا أعلم تحديدًا الغرض منها، ومن هم أطرافها، فهل كان دافعي الوحيد هو ولائي لياسين بك وثقتي في هناء؟ أم أنه الفضول الذي يدفعني دفعًا لمعرفة السر الذي يخفيه الرجل ويغذيه الغموض الذي استشعرته في هذا المكان منذ عملي فيه؟ لا أدري! وعلى أيه حال لا أجد سببًا قويًّا يمنعني من الاستمرار.

***

ما إن ضغطت على حرف (R) في نهاية كلمة السر حتى اختفت الشاشة التي أمامي، وظهرت شاشة ثانية لم أرها من قبل، ويبدو أن

كلمة السر هذه تدخل مباشرةً على برنامج معين في الجهاز، وليست هي كلمة السر التي يدخلها ياسين بك في المعتاد؛ والتي تظهر بعدها شاشة ثانية تسمح لي بإدخال كلمة السر الخاصة بي. المهم كانت الشاشة بخلفية سوداء، كُتِب عليها:

"أهلًا بك كائنًا من كنت... أنا بالتأكيد الآن في وضع لا يسمح لي بالدخول على هذا الجهاز، وإذا كنت قد حصلت على كلمة السر هذه فقد اخترتك من دون سائر البشر بأن أخصك بأدق أسراري...

كنت أتمنى دائمًا ألا ألجأ إلى ذلك أبدًا، ولكن الحمد لله أنه أبقى داخلي دائمًا شعور البارانويا الذي لم يجعلني يومًا أثق في أحد ثقةً عمياء، تلك الثقة التي يضعها الأغبياء تاجًا على رؤوسهم...

على أية حال أعتقد أنك لا تملك الكثير من الوقت، وأمامك الكثير حتى تصل إلى الكنز الذي أفنيت عمري من أجله، ولكن عليك أن تكون حكيمًا بما يكفي أن تصل إليه قبلهم. وإذا لم تكن عند حسن ظني فإنني أفضل أن يرثني الخونة على أن يرثني الأغبياء..."

**ياسين عبد القادر...**

**أكتوبر 2003...**

**اضغط على زر الإدخال!**

وما أن ضغطت زر الإدخال حتى ظهرت لي صفحة جديدة كُتِب عليها بنفس الحروف:

هل يستحق الحب كل تلك المعاناة

حمدًا لله إنه لم يهدها إحدى عينيه

وهل سوى الجنون يجعله يحيرنا

هل كانت شمسًا غاربةً أم قمرًا في محياه؟

ثم كتب أسفل الأبيات

التاريخ: .... / .. / ..

الساعة: .. / .. / ..

حاولت أن أبحث عن أي شيء في الملف، ولكن عبثًا، لم يكن به سوى تلك الصفحة وتلك الأبيات، وذلك السجع الذي لم أفهم منه شيئًا. كتبت كل ما كُتِب في الصفحة على ورقة صغيرة قبل أن أخرج من البرنامج، وأطلع هناء على ما وصلت إليه لعلها تملك الإجابة.

***

خرج ياسين عبد القادر مع جميل الحسيني في جنح الظلام في ليلة غير مقمرة، وسارا معًا في طريق ملتوٍ حتى وصلا إلى ربوة صغيرة تبعد عن سور المصنع بحوالي مئة متر أو يزيد.

قال له جميل الحسيني بصوت هامس:

– شايف المبنى اللي ورا السور ده؟

– متهيأ لي ده باب المعمل اللي عليه النور، مش كدة؟

– هو بالضبط.

– بس أنت جايبنا بعيد عن السور كده ليه؟

– وطي صوتك، الصوت بالليل بيسري، والأمن ورا الأسوار في كل ركن من المصنع، وكلهم معاهم سلاح، ولو حسوا بوجودنا مش حايبقى لينا دية، وماحدش حايعرف لنا طريق.

– مش عارف ليه أنا حاسس أنك بتبالغ قوي؟

– أصبر وإنت حاتعرف إذا كنت ببالغ ولا لأ... مش ملاحظ حاجة غريبة شوية؟

– إيه؟

– المعمل اللي إنت دخلته كانت مساحته قد إيه؟

– كانات غرفة صغيرة ما يزيدش طولها عن خمسة متر.

– وشايف طول المبنى ده قد إيه؟

– آه؛ بس واضح إنه فيه مساحة كبيرة بعد المعمل. ده مبنى ما يقلش طوله عن خمسين متر.

– بس في المعمل كان فيه باب غرفة عادي ما يدلش إنه وراه المساحة دي كلها؛ مش كده ولا إيه؟

– والله دي معاك حق فيها، دي مساحة كبيرة فعلًا وأنا مش متذكر إني دخلت فيها.

– إرجع بذاكرتك شوية وإنت ماشي في المساحة المفتوحة في المصنع أو في مدخل المعمل أو المصنع الكبير نفسه، مش ممكن تشعر إنه فيه مبنى متداري كده، وده المكان الوحيد اللي ممكن تشوفه منه من بره المصنع.

– بصفتي مهندس أقدر أقول إن ملحوظتك في محلها جدًّا وخصوصًا أن عرض غرفة المعمل ومساحة الباب اللي جوه ما تدلش إن وراها مساحة كبيرة كدة، بالكثير غرفة صغيرة ملحقة بيها.

نظر جميل الحسيني في ساعته وقال:

– دقائق والمهندس حايفتح باب المعمل ومعاه المساعدين بتوعه عايزك تأخذ بالك من لبسهم...

ما هي إلا دقائق وفُتِح باب المعمل... ثلاثة رجال يرتدون ملابس تشبه رواد الفضاء، وما هي إلا لحظات حتى أُضِيأت غرفة المعمل، وظهرت الإضاءة من خلال النافذة الموجودة في المعمل، ورأى ياسين الرجال وهم يفتحون الباب الصغير داخل المعمل، ويختفون داخله،

ولكنه لم يرى شيئًا بعد ذلك، حيث أن باقي المبنى لم يكن به نوافذ، فقط بعض فتحات التهوية؛ ظهر من خلالها أنهم قاموا بإضاءة الأنوار، لكن لم يكن ممكن رؤية ما يدور داخل المبنى.

قال ياسين:

– الناس دي لابسة كده ليه، ده ولا عمال المناحل، ده احنا في عز الصيف؟

– بعد الحادثة ما بقاش حد بيدخل الغرفة دي غير المهندسين بتوعهم، ولازم يكونوا لابسين اللبس الواقي ده، والواحد فيهم ما يبانش منه ولا طرطوفة أصبعه.

– الحادثة؟ حادثة إيه؟

– اصبر على رزقك، أنا عايزك تمشي ورايا من غير ما تعمل أي صوت، حانلف حوالين المبنى بس من بعيد، لأني عايزك تشوف الباب الكبير اللي في آخر المبنى، حايفتح بعد حوالي ساعة، بس هي ثوان، حاول تبص بسرعة.

مرت أكثر من ساعة ونصف وهما يستتران ببعض الأشجار في موقعهم الجديد، ثم انفتح باب كبير وخرج إثنان يحملان برميلًا صغيرًا، وضعاه في الخارج بالقرب من السور ثم دخلا وأغلقا الباب خلفهما. دُهِش ياسين ورجع برأسه إلى الوراء وقال:

– إيه ده، ده شكله معمل كبير جدًّا، ويزيد عن معمل الكيمياء إللي كان في الكلية عندنا.

– ويزيد عن أي معمل أنا شفته في كلية الطب كمان.

– ده...

أمسك جميل بيده وأشار له إلى رافعة يقودها شخص ظهر فجأةً من أقصى اليمين، وتحرك نحو البرميل ورفعه بعناية شديدة باستخدام الشوكتين ثم استدار واختفي من حيث أتى.

التفت جميل إليه وقال:

– كفاية لحد كده، مش حاتقدر تشوف أكثر.

– بس أنا ما فهمتش حاجة؟

– دي مجرد مقدمة يا باشمهندس، بس كان لازم منها علشان اللي حاتسمعه بعد كده تقدر تستوعبه بسهولة. مطلوب دلوقت نركب الكلام على الصورة، يلا بينا...

***

ابتسمت هناء عندما رأت الورقة، وقالت:

– هه يا باطل وحلتها ولا لسه؟

– حلتها؟ بالبساطة دي، يا بنتي أنا مش خبير في حل الأكواد. دي مجرد هواية وقرايات نظرية.

– طيب على الأقل ابتدي طبق الطرق النظرية.

– دى مش مكتوبه بالشيفرة أصلا

– أمال إيه؟

– دي عاملة زي الفزورة، ده كلام عادي ومفهوم وبيحاول يدينا إشارات نطلع منها بإجابة، زي عروستي كده.

– وليه ما تكنش مكتوبة بالشيفرة اللي اتفقتم عليها؟

– يا هناء كلمة شيفرة دي يعني إن كل حرف تم استبداله بحرف بديل أو مش في مكانه الصحيح، ولما الكلام بيتشفر بتبقى النتيجة زي ما وريتك قبل كده؛ بتبقى النتيجة كلام مش مفهوم، إنما ده كلام عربي واضح وكل كلمة فيه ليها معنى إنما يقصد بيها إيه، هو ده اللي علينا نجاوبه، ثم إن دي مكتوبة في 2003، والمفتاح اللي اتقفنا عليه ما بقالوش أسبوع.

– يعني حتى الكندي بتاعك ما لوش لازمة؟

– يا حبيبة قلبي؛ الكندي مجرد لقى طريقة لحل الرسالة المكتوبة بالشيفرة من غير ما يعرف المفتاح، وطريقته ببساطة إنه اكتشف إنه في أي

لغة في الدنيا لو مسك كتاب أو صفحات كثيرة مكتوبة باللغة دي وعمل إحصائية لتكرار الحروف فيها حيلاقي إنه باستمرار فيه حرف بيتكرر أكثر من غيره، وده بيسميه الحرف الأكثر تكرارًا، وبعدين حرف بيتكرر أقل منه شوية وبعدين الحرف الثالث لحد الحرف الأقل تكرارًا...

يعني مثلًا الألف وبعدها اللام في العربي، وe وبعدها t وبعدها a في الإنجليزي... المهم كان بيمسك الرسالة المشفرة ويعد إيه أكثر حرف متكرر فيها وليكن k يقوم يتوقع إن الحرف k استخدم بدل الحرف e اللي هو أكثر تكرارًا في الإنجليزي، والحرف اللي بيتكرر عدد مرات بعده وليكن s يبقى ده تم استخدامه بدل الحرف t وهكذا...

وبعدها يرجع يبدل كل حرف في الرسالة المشفرة، فتظهر له الرسالة الأصلية بنسبة توقع، أو احتمال، أقرب ما يكون، وسهل بعدها إنه يغير بعض الحروف اللي بيكون وضح من شكل الكلمة إذا كان توقعه صح ولا لأ، لأن الإحصاء مهما كان ما بيكونش دقيق، ويعمل شوية تعديلات، طبعًا باعتبار إن اللي بيحل الشيفرة بيعرف في اللغة اللي اتكتبت بيها الشيفرة...

المهم ده مش موضوعنا، إلى قدامنا ده فزورة، مجرد فزورة مطلوب مننا حلها، زي "قد الفيل ويتلف في منديل" أو "حتة من عند الجزار وحتة من عند النجار شفته بعيني طار"... الخ.

– لو ده صحيح يبقى أنت في ملعبي يا أستاذ.

– إزاي يا بتاعة الفن؟

– صحيح أنا خريجة فنون جميلة، إنما الفوازير دي كانت لعبتي وأنا صغيرة، لدرجة إني كنت عاملة كراسة كاتبة فيها كل الفوازير.

– هناء، إنتِ واخدة الموضوع بهزار، أنا ما قلتلكيش إيه اللي كان مكتوب في الصفحة الأولى قبل ما والدك يدخلنا في لعبته الغريبة دي.

واضطررت أن أقص عليها ما قرأته، فظهر عليها الوجوم.

***

دخل ياسين خلف جميل إلى صحن دار الأخير وجلس حيث أشار إليه قائلًا:

– اتفضل يا ياسين، تشرب إيه؟ ولا أقولك أخلي الحاجة تحضر لنا لقمة علشان يبقى عيش وملح.

– ما تتعبهاش، الوقت متأخر.

– اتفضل يا راجل؛ لسه الكلام بيننا كثير.

لم تمض لحظات وسمع ياسين طرقًا خفيفًا على باب المنزل، فتح جميل الباب، وعاد إلى حيث جلس ياسين ومعه شخص ملثم. رفع الرجل لثامه، ومد يده مصافحًا ياسين بسرعة، واتخذ مجلسه في مواجهته. ابتسم له ياسين وقال:

– آه؛ إنت اللي كنت بتبص لي وأنا في المصنع.

لم يبادله الرجل الابتسام واحتفظ بنظرته الجادة، فقال جميل:

– أقدملك كامل الأشرم، إنت يمكن مش عارفه كويس بس هو عارفك.

– أهلًا وسهلًا.

هز الرجل رأسه وهو يرمقه بنظرة حادة، فقال ياسين:

– بس إنت بتبص لي بالطريقة دي ليه؟ إنت متغاظ مني ولا إيه؟

ضحك جميل وقال:

– ما تأخدش في بالك يا ياسين، كامل دايمًا كده ما بيضحكش، للرغيف السخن، واخدها دايمًا على صدره، وخصوصًا إن اللي شافه مش شوية...

نظر ياسين لجميل بنظرة مستفسرة؛ فقال جميل موجهًا حديثه لكامل:

– إتأكدت إنه ما حدش شافك وأنت جاي على هنا؟

هز كامل رأسه بتأكيد، فعاد جميل موجهًا حديثه لياسين.

– أنا حاخلي كامل يحكيلك على كل حاجة بالتفصيل، بس عايز أنبهك لحاجة مهمة، لو شفته بعد كده في أي مكان ما تسلمش عليه، ولا كإنك تعرفه، كامل بيشتغل في المصنع، وأي حد بيشتغل معاهم يبقى تحت مراقبة مستمرة أغلب الوقت...

بدأ كامل يتحدث:

– كنت يومها جوه المصنع زي العادة، ومرة واحدة سمعنا صوت انفجار، كأنها جنبلة في المعمل، جرينا نشوف فيه إيه، لجينا المهندسين طالعين بسرعة من الباب والدخان طالع من كل ناحية، الحاج حنفي ريس العمال زعج فينا؛ نجري نجيب جرادل المية...

قمنا جرينا ناحية الحنفيات اللي تحت الخزان، كنت تجريبًا آخر واحد فيهم، عويس وبسطاوي وخليفة سبقوني عبال ما رحت ناحية المعمل وراهم لجيتهم بيتكوموا واحد ورا الثاني أول ما الدخان لفح في وشهم، وجفت متسمر مكاني...

ولجيت عمال الأمن لابسين لبس زي المهندزين وبيجروا ناحية المعمل ومعاهم فناطيس صغيرة، وبيشاوروا للحاج حنفي يبعد، وما يخليش حد من باجى العمال يجرب...

واحد منهم حجز على عويس واللي معاه، وماخلاش حد يجرب منهم، كنا حناكله، لكن الريس حنفي شاور لنا نسمع كلامه وخرجونا من باب المصنع...

طلعت العربية جدامنا من باب المصنع، وكانت شايلة الرجالة وطلعوا بيهم على المستشفى... وبعدها عربية العمال أخذتنا وراهم لحد ما وصلنا هنالك، وماحدش فينا شاف الثاني جوه المستشفى...

جعدنا هناك لحد بالليل والحكماء داخلين طالعين على بيعملوا فحوصات وأبصر إيه، وشكوني حقن وبرشام، وأخدوا مني دم...

وقبل ما أخرج دخل لي الحاج حنفي وجال لي ما أجبش سيرة عن اللي حصل واصل، ولا حتى لأهل بيتي وزمايلي اللي كانوا معايا، وجال أن الكل بخير والشركة حاتدفع لنا فلوس كثير، وما حاصلش حاجة، ونحمد ربنا إن الكل سليم، والكلام الكثير حايضر مش حاينفع.

قال ياسمين:

- وكانت حالة المغمى عليهم إيه؟

- كانوا كويسين وماشيين على رجليهم بس مسفرين شوية.

وجه ياسين الحديث إلى جميل قائلًا:

- بس دي حادثة عادية ممكن تحصل في أي مصنع.

- اللي مش عادي هو اللي حصل بعد كده، كل اللي حكالك عنهم دول، وباقي العمال اللي كانوا في الموقع ابتدأت تظهر عليهم بعد كده أعراض أمراض رئوية حادة، ودي الحالات اللي أنت سمعت عنها وإنت في مصر.

- بس ما سمعتشي حد إتكلم عن موضوع الحادثة ده؟

- ولا كأنك سمعت حاجة دلوقت، لأنه ما حدش فيهم اتكلم عن الحادثة نهائيًّا.

- ولا حتى كامل؟

- كامل ما حكاش القصة دي لغيري.

- بس إنت كلمتني عن زملاء؟

- ثلاثة كمان حاعرفك عليهم؛ كانوا من ضمن عمال المصنع، لكن بعيد عن الحادثة، وما شافوش حاجة تقريبًا؛ إنما التزموا بالتعتيم اللي فرضته عليهم إدارة المصنع، خصوصًا إنه كل واحد في المصنع أخذ بدل طريحته ثلاثة، وأدولهم أجازة أسبوعين يرتاحوا، ومدفوعة الأجر مقدمًا كمان.

ولولا ضغطي عليهم أنا وكامل ماكانوش حيتكلموا في الموضوع ده أبدًا، خصوصًا إنه ماحدش اتوفى، واتفقنا كلنا إن الموضوع ده يفضل سر بيننا لحد ما نعرف بالضبط الناس دي بتعمل إيه جوه المعمل وإيه اللي حصل في الناس.

- وعرفتم؟

***

على قدر ارتياحي أن هناء قد بدأت تستشعر المسؤولية وتأخذ الموضوع مأخذ الجد وتتخلى عن مزاجها المعتاد، إلا أنني لم أعتد أن أراها جادةً بشكل مستمر، وهي التي لم تكن تفارقها الابتسامة حتى في أحلك الأوقات، وكانت تتباهى بأنها تستطيع أن تقهر آلامها مهما عظمت بابتسامة صافية.

قالت وهي تقطب حاجبيها:

– دلوقت كل كلمة لازم يكون ليها معنى، وكلها بتصب في اتجاه واحد، للفكرة اللي عايز يوصلها لنا.

– كلام جميل. يبقى عندنا واحد مجنون حب واحدة حب شديد جدًّا لدرجة أنه عانى منها معاناة مرة.

– وليه ما يكون العكس؟

– واضح جدًّا في كلمة "إحدى عينيه" وإلا كان قال إحدى عيناها.

– طيب يا فصيح؛ بس إيه الحاجة إلى أُعْجِبت بيها الهانم وبيحمد ربنا أنها ماكانتش عينيه؟

– بيقول "إحدى"؛ يعني حاجة فيه منها اثنين، وأهداها واحدة فيهم، يعني مش قلبه ولا عقله ولا كبده ولا مناخيره ولا شعره...

– بس، بس إنت حاتشرحه حته حته. بس كلامك منطقي برضه، يبقى ممكن ذراعه أو رجليه أو ودانه.

صمت، لحظةً، ثم صرخت:

– ودانه!! أنا عرفت مين المجنون إللي قطع حته من ودانه.

– يا نهار إسود، ده مين التحفة ده؟

– رسام مشهور جدًّا، فجأةً وبدون مقدمات قطع حته من ودنه وإداها لواحدة في بيت دعارة!!

- بيت دعارة! يعني كمان مش لحبيبته؟

- المعاناة في الحب كانت مع حبيبه مش حبيبته!

- كان شاذ يعني؟

- بص موضوع قطع ودنه ده كان حادث غامض، واتكتبت فيه نظريات كثيرة، إنما الواقعة المتفق عليها إنه قطع حته من ودنه بعد ما قطع علاقته مع صديقه، والحادثة حصلت بعد نهاية خناقة بينهم؛ قطع ودنه وأخذ بعضه، وراح بيت دعارة وإداها لواحدة بتشتغل هناك...

إنما كانت علاقة صداقة أو شذوذ دي مش أكيدة، لأنه بعدها بدأ يدخل في مرحلة هلوسة وبداية جنون، وصاحبه كان الفنان الرسام برضه، بول جوجان... عروستي؟

- لأ، ولا بعد ميت عروستي، أنا ماليش في قصص الرسامين دي.

- ماشي، غلب حمارك، ده يبقى فان جوخ يا أستاذ.

- معقول فان جوخ التي لوحاته بتتباع دلوقت بالملايين.

- ومات، منتحر ومفلس ومجنون وفي مصحة كمان.

- أنعم وأكرم.

- بس، يبقى بابا يقصد لوحته اللي رسمها فان جورخ لنفسه وكانت ودانه مربوطة، ودي عندنا نسخة منها في مكتب بابا هنا في البيت.

قامت مسرعةً من على مقعدها وتبعتها إلى غرفة مكتب ياسين بك، واتجهت فورًا لأحد أركان الغرفة وقد عُلِّقت فيها لوحة فان جوخ التي وصفتها، فقلت:

– بتقولي نسخة؟ أنا عارف إن والدك بيحتفظ بلوحات أصلية؟

– ده كان زمان، كل اللوحات الأصلية اللي كانت عنده، أو بمعنى أصح أغلبها والمشهور منها بالتحديد أهداها لمتاحف، من سنين طويلة... اللوحات الأصلية اللي فضلت هنا من وسط كل اللوحات اللي إنت شايفها هنا في البيت وفي المكتب، معدودين، ومش مشهورين قوي، أما باقي اللوحات المشهورة فكلها متقلدة.

– وإيه اللي خلاه يعمل كده؟

– مش عارفه بالضبط، إنما واضح إنها هوجة فنية طلعت في دماغه، إنه مش مفروض إن اللوحات الأصلية الشهيرة دي يتمتع بيها شخص لوحده...

وكمان تأمين الأوضة دي والفيللا كلها كانت عملية صعبة جدًّا، وكانت مسببة له إزعاج ولينا كلنا في الحقيقة، فاكتفى إنه عمل منها نسخ وعلقها مكانها، ولعلمك القصة دي كلفته كثير جدًّا لأنه حتى النسخ عملها فنانين كبار، لكن معاصرين...

– طيب أدينا قدام اللوحة، إنما إيه اللي عاوزنا نعرفه منها؟ رسم نفسه وودانه اليمين مربوطة، ووراه تقريبًا دي لوحة رسم،

والناحية الثانية لوحته متعلقة على الحيطة مش شايف فيها حاجة محتاجة تحليل؟

– شغل مخلك يا أستاذ، أكيد فيه ورا اللوحه حاجة مكتوبة ومش بعيد تكون بالحبر السرة، إيدك معايا.

– يا بنتي بلاش التسرع ده، إنتِ أفلام المغامرات لحست مخك... احنا ممكن نكون وصلنا للمقصود من البيت الأولاني، ولكن بقية الأبيات معناها إيه.

**وهـل سـوى الجنون يجعله يحيرنا**

**هل كانت شمسًا غاربةً أم قمرًا في محياه؟**

يعني صيغة سؤال شمس غاربة، أم قمر في محياه؟ أنا مش شايف في اللوحة لا شمس ولا قمر...

هبط حماسها، وجلست على المقعد قائلةً:

– يعني إيه؟

– يعني ممكن يكون فان جوخ إنما مش اللوحة دي... هو قصد في الأغلب يدلنا عليه في الأول إنما قصد لوحة ثانية رسمها فان جوخ برضه، إنما فيها شمس أو قمر أو مزيج من الاثنين مش عارف.

– بس دي اللوحة الوحيدة لفان جوخ اللي هنا...

– ومين قال إنه قصد اللوحة دي؟ فيه لوحة ثانية لشمس أو قمر رسمها فان جوخ.

– فان جوخ أغلب لوحاته يا فيها شمس يا قمر، لأنه أغلبها لمناظر طبيعية.

– طيب يمكن لوحة رسمها بعد ما اتجنن؟

– فان جوخ عنده أكثر من ألف لوحة، نصهم رسمهم بعد ما اتجنن.

– إنتِ بتعقديها ليه؟

– أنا باتكلم بجد، هي دي الحقيقة على حد علمي.

– وبعدين؟

– ما فيش غير إننا نجيب لوحات فان جوخ كلها ونشوفها واحدة واحدة، ونركز في اللوحات إلى فيها شكل الشمس أو القمر...

– ودي حانجيبها منين؟

– ثواني أنا متهيألي عندي الكتاب ده فوق، كنت سالفاه من واحدة صاحبتي من مدة وما رجعتوش لحد دلوقت...

لم تمض دقائق حتى رجعت هناء ومعها المجموعة الكاملة لفان جوخ... كان الكتاب يحتوى على مئات اللوحات، ولم يكن هناك مفر من فحصها لعلنا نهتدي لأي إشارة... وبعد حوالي ساعة قالت هناء:

– مستحيل، مش حانقدر نوصل لحاجة كده.

– طيب أنا عندي فكرة، متهيألي ممكن تختصر وقت كبير لو استخدمنا الانترنت.

استحسنت هناء الفكرة فقامت، من فورها وفتحت جهاز الكمبيوتر الخاص بياسين بك في غرفة مكتبه، وبدأنا البحث في المواقع التي تتحدث عن فان جوخ. تحت كلمة بحث SunSet أو غروب الشمس، فوجدنا 3 لوحات تحمل هذا الاسم، أما تحت اسم Sun شمس فقط وجدنا 18 لوحة، وتحت اسم Moon أو قمر وجدنا لوحةً واحدة فقط.

كانت هذه هي حصيلة اللوحات التي تحمل اسم شمس أو قمر، هذا بخلاف عشرات اللوحات التي تظهر بها الشمس أو القمر ولكن لا يحتوي اسم اللوحة كلمة شمس أو قمر. أحسست أننا عدنا لنقطة البداية من جديد فليس في اللوحات ما يدل على وجود التباس بين ما إذا كان المرسوم قمرًا أو شمسًا إلى أن قالت هناء:

– إبراهيم، اللوحة الوحيدة اللي فيها اسم القمر دي مش مريحاني قوي، ارجع لها ثاني كده.

عدت إليها وبدأت هناء تتفحصها بعد أن كبرت اللوحة بحجم شاشة الكمبيوتر ثم هزت رأسها قائلةً:

– على فكرة؛ لولا أن اسم اللوحة فيها تحديدًا أن المرسوم ده قمر. (Evening landscape with rising moon) كنت قلت أن

ده ممكن يكون شكل غروب شمس... اللوحة مرسومة سنه 1889، ارجع كده لصفحة تاريخ فان جوخ، هو دخل مرحلة الجنون امتى؟

بدأت أقرأ لها:

– بدأ مرحلة الجنون سنه 1888، وداخل المصحة سنة 1889 ومات في يوليه 1890. وخلال الفترة دي رسم أكثر من أربعمائة لوحة.

عدنا لفحص تاريخ رسم اللوحات فوجدنا عدة لوحات من التي تحمل اسم الشمس رُسِمَت أيضا خلال تلك الفترة.

عادت هناء تقول:

– برضه مش مستريحة للوحة دي، المكان اللي راسم فيه القمر واستدارته ولونه، وانعكاس الضوء على الحقل ممكن يكون لشمس بتغرب...

– بس معقول اللوحة اسمها غلط؟

– خلي بالك إن أسماء اللوحات مش شرط يكون كاتبها فان جوخ نفسه، معظم لوحات الفنانين إن ما كانش كلها بتكتب أسماءها بعد موتهم بكثير بواسطة دارسين الفن، وأحيانًا كمان تاريخ رسمها ما بيكونش دقيق مية في المية، وخصوصًا بالنسبه لرسام عاش حياته مغمورًا زي فان جوخ، وأهميته ظهرت بعد موته مش زي الرسامين اللي ظهروا في القرن العشرين زي بيكاسو مثلا... فيه حاجة مش قادرة أبلعها قوي...

– عمومًا الوقت اتأخر قوي، وزمان مدام سهير جاية، سيبيني أحاول أبحث أكثر في اللوحة دي لما أروح البيت، بس أرجو ما بيكونش شكك من باب حماسك للمغامرة والإحساس بالغموض.

– صدقني لا، بس ده من باب الحس الفني.

***

اعتدل جميل الحسيني في جلسته قائلًا:

– الموضوع ما كانش سهل إني أعرفه لأن العمال لما رجعوا تاني للشغل كانت كل آثار الحادثة اختفت تمامًا، والشركة عملت احتياطات غير عادية حوالين المعمل، وما كانوش بيسمحوا لحد فيهم يقرب من المعمل نهائيًّا. إلا بس المهندسين بلبسهم إللي أنت شفته.

– بس مش غريبة يا أخ كامل إننا في بلد ريفي وما حدش منكم يتكلم في موضوع زي كده مع أي حد من أهله أو قرايبه أو أصحابه؟

رد جميل قائلًا:

– الحمد لله إني كامل حكالي بسرعة عن الموضوع ده، وأنا خليتهم يقفلوا عليه تمامًا لحد ما أفهم إيه القصة، خصوصًا إن الكلام لما كثر والناس ابتدوا يقولوا إن أبخرة المصنع هي السبب في الحالات المرضية اللي ظهرت، العمدة اتزعم الجبهة المعارضة بشراسة، وقال كلام أقنع الناس بأنه لو كان عنده شك في إن المصنع بيجيب أمراض كان أول واحد وقف قصاده...

ماهو وعياله عايشين في البلد برضه، وكمان إدارة المصنع والأجانب اللي فيه ما هم زي الفل وأربعة وعشرين قيراط برضه، والمصابين طابوا بالعلاج، ورجعوا شغلهم، على إيه بقى الزوابع اللي مالهاش لازمة دي...

اتفقنا إن الموضوع ده لازم يفضل بيننا ومانداخلش نفسنا في المهاترات، لأنه مجرد الكلام من عمال المصنع كانوا حايستبعدوهم من الشغل هناك، وماكانش ممكن نعرف إيه اللي بيدور جوه. باختصار علشان نقدر نواجه العمدة والشركة والناس دي كلها كان لازم نبقى في مركز أقوى وإلا كنا اتفرمنا...

– بس إنت مش بتشتغل في المستشفي؟ إزاى ما عرفتش ساعتها إيه الأبخرة اللي أثرت عليهم وكان إيه التشخيص؟

– أنا باشتغل في مستشفى المركز والمصابين راحوا المستشفى الخاص بالشركة، ودي مخصصة للعاملين بالشركة وأسرهم فقط. إنما إلي طبيبة زميلة بتشتغل هناك، لسه مخلصة الامتياز، إنما للأسف كانت أجازة اليوم ده...

لكنها قدرت بعد كده تجيب لي صور من التقارير الطبية اللي كانوا مكتمين عليها بشكل غير عادي. وساعدتني كمان في عمل تحاليل دم لعينات أخذتها من المصابين لأن المعدات عندهم أسرع، ومتطورة أكثر من عندنا بكثير...

– إنما ما خافتش تتكشف؟

– الدكتورة سماح دي بميت راجل، إنت أكيد سمعت عنها أو شفتها، دي ساكنة قريب منك جدًّا.

– أنا فعلًا شفتها، كلهم بينادولها الست الدكتورة. دي تقريبًا الدكتورة الست الوحيدة هنا، بس مش غريبة أنهم يشغلوها في المستشفى بتاعهم؟

– ما دي عمها يبقى شيخ البلد، وده الراجل بتاعهم، إنما سماح جدعة ومتحمسة زينا إنها تكشف الحقيقة.

– إنما ما قلتليش، إنتم وصلتم لحاجة من التقارير الطبية؟

– ما أنا جاي لك في الكلام. التقارير ما ذكرتش نوع المرض أو سبب اللي حصل للعمال، إنما وصفت الأعراض والعلاج اللازم بس، وكمان تحاليل الدم ما وضحتش غير إنه فيه التهاب شديد في مكان ما؛ لأن كريات الدم البيضاء كانت مرتفعة زيادة عن اللزوم.

– يعني ما وصلتوش لحاجة؟

– يا أخي صبرك بالله. البطل ده، وعلى مدار أيام وأسابيع كان بيجيب لي عينات صغيرة من كل المواد المستخدمة في المعمل والمصنع... خامات ومواد من المعمل والنواتج اللي كان بيحرصوا إن ما فيش يد تمتد لها.

– بس دي ممكن يبقى فيها سميات إزاي عرضته لخطورة بالشكل ده؟

– لا، كامل ده يعجبك قوي، إديته كورس مكثف إزاي يأخذ عينات وهو لابس الجوانتي والكمامة وما يتنفس غير لما يحط العينة في أنبوبة الاختبار ويقفلها كويس، ويخبيها بشكل ما بيخطرش على بال حد...

وزيادة في الحرص كنت باودي العينات لواحد صاحبي بيشتغل في معامل وزارة الزراعة في مصر، وقدرنا نعمل عليها كل الاختبارات الكيميائية والعضوية اللازمة لحد ما ربنا وفقنا وعرفنا المادة اللي بيحضروها في معملهم السري، وعاملين عليها كل التحصينات دي، والله وحده يعلم همه ناوين يعملوا بيها إيه؟

– ودي تطلع إيه؟

– Magnaporthe grisea...

***

– إنتِ عبقرية، واسمحيلي أرفع لك القبعة.

– إيه!؟

– لأ؛ مش حاينفع في التليفون؛ قابليني فورًا في الكافيه.

في أقل من ربع ساعة وجسدتها مهرولةً من باب الكافيتريا، وجاءت مسرعةً إلى حيث جلست وقالت:

– لقيت حاجة؟

– لقيت كثير، ابتديت أحترم حسك الفني... تشربي إيه؟

– ده وقت شرب؟ قول بسرعة.

– أنا بقالي 48 ساعة ما نمتش وشكلي حاترفد من تحت راسك، وخصوصًا إن أحمد بك قاسم في الطالعة والداخلة بيبصلي بصات مريبة.

– يا إبراهيم ده مش وقته، لقيت إيه؟

– بصى يا ستي... بعد بحث طويل ومرير في جميع المواقع التي تحدثت عن فان جوخ وعبقريتي في اختيار كلمات بحث مبتكرة و...

– يا عم خلص؛ إنت حاتعيشني في دور الساسبنس؟

– طيب اسمعي التقرير ده فيه إيه...

"في تزاوج ما بين العلم والفن اكتشف ثلاثة من علماء الفلك الوقت الدقيق الذي رسم فيه فان جوخ إحدى لوحاته التي رسمها في أكثر فترات حياته اضطرابًا. وهذا التوقيت أربك مؤرخي الفن لسنوات عديدة...

حتى موضوع اللوحة كان فيه شك حتى عام 1920 كانوا يعتقدون إن اللوحة تعبر عن شمس غاربة، وليس قمرًا بازغًا، وفي البداية لم تحمل اللوحة أي اسم، بل رقم كتالوج فقط F735...

وفي عام 1930 مال الاعتقاد إن اللوحة تمثل قمرًا في بداية صعوده وليس شمسًا في نهايات غروبها! حتى جاء الفلكيون الثلاثة وحسموا القضية في عام 2001...

ولإثبات نظريتهم قاموا بزيارة المكان الذي رُسِمَت فيه اللوحة في المصحة التي قضى بها فان جوخ نهاية أيامه بجنوب فرنسا، ومن واقع رسالة كتبها فان جوخ لأخيه ثيو؛ عرفوا أن اللوحة رُسِمت ما بين مايو وسبتمبر 1889...

وتأكدوا أن فان جوخ رسم هذه اللوحة تمامًا كما رآها في الطبيعة، وليس من الذاكرة، فما زال المنظر العام كما هو وكما رسمه فان جوخ بريشته وباستخدام معداتهم وحساباتهم الفلكية أكدوا أن اللوحة رُسِمت إما في 16 مايو أو 13 يوليه 1889...

ولكن لم يستطيعوا معرفة أي من التاريخين لتطابق شكل القمر تمامًا في التاريخين، ولكن باستخدام المنطق المجرد في أن اللوحة تظهر حقول القمح باللون الذهبي، وحيث إنه في مايو يكون القمح في طور النمو ولونه يكون مائلًا إلى الأخضر فإن التاريخ الأصح هو13 يوليه، وليس 16 مايو!

وإذا كان يوم الرسم هو 13 يوليه فإن القمر يكون في هذا المكان تحديدًا في الساعة التاسعة وثماني دقائق!! وأكد العلماء أنه في يوم 13 يوليه 2003، وبعد مرور 115 عامًا من رسم اللوحة يكون القمر في نفس موضعه وفي نفس اللحظة التي كان عليها عام 1889... انتهت المقالة "

– مش ممكن طبعًا كل ده يكون صدفة، أكيد بابا قصد يدلنا على المعلومة دي، صح؟

– ما فيش جدال وخصوصًا إنه كتب البرنامج بتاعه في أكتوبر 2003. أبوك ده عبقري.

– أبويا برضه؟

– أنا من الأول شهدت لك.

– طيب حاتدخل المعلومات دي على الجهاز امتى؟

– قدامي أكثر من ثلاث ساعات على ما أروح المركز.

– طيب واحتفالًا بالإنجاز اللي وصلنا له، بينا على السبورة بتاعتك تشرح لي الموضوع اللي وقفنا عنده المرة اللي فاتت.

–موضوع إيه؟

– إنت نسيت، إزاي قدر بابا يوصل لك كلمة السر بالطريقة الجهنمية بتاعتكم؟

– آه، أوكي، يلا بينا.

***

– آخر مرة اتكلمنا فيها؛ وقفنا على أن الكندي قدر بطريقته الإحصائية أنه ينهي طريقة قيصر اللي سيطرت على عالم التشفير لأكثر من ألف سنة، وكانوا معتقدين إنها غير قابلة للحل من غير معرفة المفتاح، لما ابتدت نظرية الكندي تنتشر وتتعرف ابتدت العقول البشرية تفكر في طرق أصعب في التشفير والتكويد.

– إلا على فكرة؛ إيه الفرق بين الشيفرة والكود؟

– الشيفرة هي عملية إحلال أو تبديل الحروف زي طريقة قيصر، إنما التكويد هي استبدال الكلمة كلها بكلمة بديلة، يعني نتفق مثلًا أن كلمة عصفور تعني طيارة، أو كلمة بطة تعني غواصة، كده يعني... ودي كان بيتعملها كتيب كامل اسمه كتاب الكود (Code Book)...

واللي بيسموه في الخطأ الشائع كتاب الشيفرة، إنما هو في الحقيقة كتاب الكود مش الشيفرة، زي ما في فيلم العتبة جزاز بتاع فؤاد المهندس...

للمهم بقى فيه فريقين، فريق يخترع طريقة للتشفير أو (Encoding)، وفريق شغلته إزاي يلاقي طريقة يفكها أو (Decoding)، وهكذا في صراع مستمر، وتاريخ التشفير مليان بتفاصيل المعارك الخفية اللي قامت بين الطرفين...

ومع تطور التكنولوجيا بدل ما بقى التشفير يدوي وبالورقة والقلم بقى فيه طرق ميكانيكية، وبعد كده طرق الكترونية وأخيرًا الكمبيوتر، ومن أشهر الطرق الميكانيكية كان جهاز ال (Enigma) اللي اخترعه الألمان قبل الحرب العالمية الثانية، واتكتب عليه كتب ومجلدات، وإزاي الإنجليز قدروا يفكوها في الحرب العالمية من غير ما الألمان يعرفوا، ودي كانت أحد الأسباب الفاصلة في فوز الحلفاء في الحرب...

مش عايز أطول عليك، في كل الطرق اللي ظهرت في الألف سنة الأخيرة كانت كلها معتمدة على وجود كلمة سر أو مفتاح لازم يكون عند الطرفين علشان يقدروا يتبادلوا رسالة مكتوبة بالشيفرة، وفضل الحلم اللي يراود علماء التشفير هو إزاي يتبادلوا المفتاح بطريقة آمنة تمامًا لحد السبيعنات من القرن العشرين...

مجموعة من المهندسين والرياضيين الأمريكان بعضهم منفرد وبعضهم مجتمع كملوا جهود بعض ووصلوا لفكرة عبقرية حققوا بيها الحلم ده بشكل ما خطرش على بال حد، واعْتُبِرت الفكرة دي النقلة العبقرية الثانية بعد إعجاز الكندي...

تعالي نتخيل بالبلدي كده الناس دي ابتدت في تفكيرها إزاي أنا إبراهيم في إسكندرية وإنت هناء في مصر وعايز أبعت لك المفتاح، حاكتب المفتاح في ورقة وأحطها في صندوق وأقفله بقفل صغير ومعايا مفتاحه وحابعتلك الصندوق بالبريد...

لما يوصلك الصندوق طبعًا مش حاتعرفي تفتحيه لأن المفتاح معايا أنا بس، لما يوصلك الصندوق تقومي تحطي قفل ثاني من عندك وتقفليه وتحتفظي بمفتاحك معاك وتبعتيلي الصندوق تاني وهو عليه القفلين، المرة دي أقوم أنا أفك القفل بتاعي، وأرجعللك مرة ثالثة الصندوق وهو مقفول بقفلك إنتِ بس...

ولما يوصلك حيبقى سهل عليك فتح القفل بتاعك وقراية الورقة. وفي كل العمليات دي الصندوق كان بيتحرك بيني وبينك وهو باستمرار مقفول بقفل سواء بتاعي أو بتاعك أوبيهم هما الاثنين.

- يا ولاد الذين، دي فكرة بمليون جنيه!

- اصبري، أنا لسة بقول دي الفكرة البلدي اللي اقتنعوا بيها أن تبادل المفتاح بشكل آمن ممكنة، إنما تنفيذ الكلام ده في الحياة العملية مش بالبساطة دي، لأن اللي حايقع في إيده الصندوق ده ببساطة حايكسره وخلصنا.

إنما الفكرة على الأقل إن تبادل المفتاح من غير ما نتقابل فكرة واردة وممكنة مش مستحيلة. الفكرة اتطورت أكثر، وخلينا برضه نلجأ لمثال بلدي علشان أقربلك الموضوع قبل ما نخش في العمليات الرياضية...

تخيلي أنا عندي زجاجة كبيرة مقسمة ثلاث أقسام بالتساوي، وإنت عندك نفس الزجاجة بنفس المساحات، أنا حاختار لون من دماغي ماحدش يعرفه غيري وليكن الأخضر، وإنتِ حتختاري لون برضه من دماغك ومحدش يعرفه غيرك، وليكن الأحمر...

حاملأ أنا ثلث الزجاجة بتاعتي باللون الأخضر، وإنتِ حاتملي ثلث الزجاجة بتاعتك باللون الأحمر. خليك فاكرة أنا لسه في إسكندرية وإنتِ في مصر. حانتفق إحنا الاثنين بأننا حنضيف الثلث الثاني في

الزجاجة لون متفق عليه بيننا، وليكن الأصفر، إنشاله حتى نتفق عليه في التليفون وأي حد يكون سامعنا...

حاتضيفي إنت الأصفر فوق الأحمر وحاضيف أنا الأصفر فوق الأخضر كل واحد مننا حيكون عنده مزيج من لونين... دلوقت حابعتلك الزجاجة بتاعتي اللي فيها أخضر وأصفر، وإنتِ مجرد عارفة إنه فيها أصفر بس ما تعرفيش اللون الثاني، وحاتبعتي لي زجاجتك إللي فيها الأحمر والأصفر وبرضه أنا مش حابقى عارف غير أنه فيها أصفر، لكن مش عارف اللون الثاني...

حأضيف أنا على زجاجتك الثلث الثالث من اللون السري بتاعي اللي هوالأخضر وحاتضيفي عندك في زجاجتي من اللون السري بتاعك اللي هو الأحمر. كده حايفضل عندنا إيه؟

زجاجتك اللي هي عندي فيها أحمر - أصفر - أخضر، وزجاجتي اللي هي عندك فيها أخضر - أصفر - أحمر.

يعني المزيج بين الثلاثة عندي وعندك حيكون واحد، مزيج من نفس الثلاثة ألوان أحمر/ أصفر/ أخضر؛ يعني أنا وإنتِ حانشوف نفس اللون بالضبط، وحيكون هو ده اللون الكودي اللي بيننا اللي ما حدش شافه أبدًا وهوممتزج غيري أنا وإنت...

وحأفضل أنا وانتِ ما حدش فينا عارف إيه اللون الثالث اللي كل واحد مننا أضافه. وحتى لو شافوا الزجاجات وهي بتتبادل في الرحلة الثانية.

– يخرب بيتك؛ عقدتني.

– المثال ده؛ المقصود منه إزاي نلاقي طريقة رياضية تدينا نتيجة، بس من النتيجة ما نقدرش نعرف الأرقام اللي ابتدينا بيها، يعني عملية رياضية يي اتجاه واحد؛ لا يمكن عكسها أو كما يُسَمى: (One Way Function)؛ تمامًا زي مزج الألوان اللي طالما حصل مش ممكن نرجعه ثاني لعناصره الأولى، وما نقدرش نعرف المزيج كان متركب من إيه...

ودي بحد ذاتها مشكلة لأن كل العمليات الرياضية المعروفة عمليات يمكن بسهولة عكسها يعني (Two Way Function)...

وكمثال مضاعفة الرقم، لو عرفنا إن حصيلة مضاعفة رقم ما هو 26 فبسهولة نعرف إن الرقم الأصلي 13 بإننا نقسم 26 على 2، ولو عرفنا مثلًا إن مكعب رقم يساوي 8، سهل إننا نعرف إن الرقم الأصلي هو 2 بحساب الجذر التكعيبي للرقم 8...

معظم الحاجات اللي حواليكِ هي من النوع ده، سهل عكس الاتجاه والرجوع بيها للأصل زي فتح مفتاح الكهرباء وقفله، عملية وعكسها، نتيجة بسهولة ترجعها لأصلها، وكانت المشكلة قدامهم إزاي يلاقوا طريقة رياضية لو اتعملت مش ممكن نعكسها ونردها لأصلها.

– يا عم بشويش علي، بالراحة...!

– ببساطة وبدون دخول في تعقيدات رياضية، أنا عارف إنتِ كنتِ أدبي... تسمعي عن (Clock Arithmetic) أو الجمع الساعاتي؟

– ده اللي بدون دخول في تعقيدات رياضية؟

– في الجمع الساعاتي يبقى فيه مجموعة محدودة من الأرقام إنما مترتبة على شكل دائرة مغلقة؛ يعني لها أول ولها آخر، تمام زي الساعة تبدأ من رقم 1 وتنتهي برقم 12، الساعة كمثال شائع بتكون Mode 12...

في العملية الحسابية 7 + 3 بنبدأ من الرقم 7، ونتحرك ثلاث مسافات توصل لرقم 10، إنما لو عملنا العملية الحسابية 7+7 حنبدأ بالرقم 7 ونتحرك 8، 9، 10، 11، 12، 1، 2 يعني حا نوصل للرقم 2...

وتكون النتيجة 7 + 7 = 2 مش 14 اللي بنحصل عليها في الجمع العادي، وبتكتب كده: 7 + 7(Mode 12) = 2.

– عملية بسيطة بنستخدمها كل يوم، واحنا بنحسب الوقت يعني لو الساعة 9، وعندنا مقابلة بعد 8 ساعات حانقول أن المقابلة حاتكون الساعة 5...

ببساطة بنجمع الرقمين 9 + 8 = 17 والناتج نطرح منه12، أي: 17 – 12 = 5، ونكتب 9 + 8(Mode 12) = 5.

– الجمع الساعاتي ميزته، على الأقل بالنسبة لموضوعنا، إنه عملية رياضية في اتجاه واحد...

يعني لو قلت لك إن: 9 + X(Mode 12) = 5. فمش من السهل نعرف قيمة X.

– ليه بقى، ما هي أكيد 8.

وممكن تكون: 9 + 20 = 5.

9 + 32 = 5.

9 + 44 = 5.

– إزاي 9 + 20 تبقى 5؟

– لأننا مع الأرقام الكبيرة مش بنطرح 12، إنما مضاعفات 12، بحيث دايمًا الإجابة لازم تكون أقل من 12، لأنه ببساطة مافيش ساعة أكبر من 12... يعني 9 + 20 = 29 نطرح منها 24 يبقى النتيجة 5، و9 + 32 = 41 نطرح منها 36 تبقى برضه 5...

المهم إنه بمعرفة رقم واحد، ومعرفة النتيجة مستحيل نتأكد من الرقم اللي استخدمناه في الجمع للوصول للنتيجة دي لأنه نهائي الاحتمالات...

المهم لما والدك بعت لي 7 مكتوبة على الورقة، وساعة متحدد فيها الرقم 9 فهمت إنه يقصد المعادلة: (X(Mode 12 + 7 = 9. فيه رقم X هو استخدمه وأنا مش عارفه، طلع منه بالنتيجة 9...

المهم إنه وصل لي الأرقام 7، 9 وإن الـ Mode بتاعنا هو 12 أنا اخترت أي رقم من عندي وكان 44... وطبقته في المعادلة؛ فكان: 7

+ 44(Mode 12) = 3... وبعت له معاك إن الناتج عندي كان 3... ورجعت أنا استخدمت إجابته اللي هي: 9، وطبقت: 9 + 44(Mode 12) = 5. وهو في نفس الوقت أخذ إجابتي اللي هي 3 وطبق: 3 + X(Mode 12).

لازم تكون إجابته برضه 5 أيا كان الرقم اللي اختاره لـ (X)، لأنه استخدم إجابتي، وأنا استخدمت إجابته.

- يا سلام، وتضمن منين؟

- إنتِ باين عليك حاتتعبيني، خليني أديكِ مثال كامل... نفترض المعادلة اللي اتفقنا عليها: 7 + 12 (XMode)...

أنا اخترت أي رقم، وليكن 8 والنتيجة: 7 + 8(Mode 12) = 3.

وهو اختار رقم، وليكن 7 والنتيجة: 7 + 7(Mode 12) = 2.

لا أنا عارف الـ 7 بتاعته، ولا هو عارف الـ 8 بتاعتي نبعت بقى لبعض أنا أبعت له الرقم 3 اللي هو النتيجة بتاعتي وهو يبعت لي 2 اللي هي النتيجة بتاعته،

أنا أطبق الآتي: 2 + 8 (Mode 12) = 10.

وهو يطبق الآتي: 3 + 7 (Mode 12) = 10.

لازم النتيجة عندي وعنده تطلع واحدة في النهاية اللي هي 10... جربي بقه أي أرقـام إنت عايزاها إن شاء الله واحد يختار رقم

9564، والثاني يختار 3211 ما تفرقش، وإنتِ بنفسك كنتِ بتوصلي المعلومات بيننا؛ لا إنتِ شفتِ الرقم الافتراضي أو السري بتاعه ولا الرقم بتاعي ولا إنتِ شفتِ النتيجة النهائية تمام زي الألوان... مش حل عبقري بالذمة؟

– مش ممكن، فيه حاجة كده فعلًا؟

– بدون الحل العبقري ده يا سيدتي لما كان للتجارة عبر الانترنت وجود وماكانش ممكن إننا ندخل أرقام بطاقات الائتمان على الكمبيوتر بشكل مأمون، المعادلة الخايبة اللي قدامك دي قلبت الدنيا 180 درجة.

– وازاي بتتعمل موضوع بطاقات الائتمان ده.

– لا، ده إنتِ عايزة كورس كامل، وأنا بصراحة اتأخرت...

***

# (3)

هل تعرف إنسانًا "طبيعيًّا" يحب الألم لنفسه؟! الإجابة بالقطع لا لأنك إن وجدته ستحكم عليه بالقطع إنه إنسان شاذ أو مريض بالماسوشية (Masochism)، ولكن ما رأيك عندما يقول الطبيب أن الألم نعمة كبرى من الله لأنه وببساطة شديدة بدونه لا نعرف المرض، بل إن تعريف الأمراض الخبيثة أنها تأتي متسللةً بدون ألم. هو شعور واحد ظاهره العذاب وفي باطنه الرحمة. شعور واحد يأتي متزنًا بذاته ولا يحتاج إلى قرين يزن معه الكفة الأخرى.

هل معنى ذلك أن هناك ميزانًا ذا كفة واحدة؟ ميزانًا ليس له ثنائية الميزان المعتادة؟

إذا كان هذا غير صحيح، فماذا نقول في تقبل الطفل لعنف والديه معه؟ ألا يتقبل منهم العنف، لأنه مؤمن في قرارة نفسه إنهما يحبانه ويريدان له الخير؟

وماذا نقول في قصة سيدنا موسى مع الخضر؟ ألا ترى أن موسى كان معذورًا رغم علمه أن هذا الرجل الذي يصاحبه مكلف من الله في

أن يرى الشر الغير مبرر في خرق المركب وفي قتل الصبي، ولم يرى الرحمة الخفية التي توازن ذل الشر الظاهري؟

هل هو ميزان أحادي الكفة؟ أم أن الكفة الأخرى يشغلها شيء خفي لا تراه أعيننا؟

دعنا نرى الموضوع بشكل مختلف، هل الخير عكس الشر؟ هل الخير والشر أضداد متزنة؟ أم أن الخير هو وسط بين شرين؟ أو كما يقولون أن الفضيلة وسط بين رذيلتين كأن يكون الكرم مثلًا الفضيلة التي تقع بين رذيلتين؛ هما البخل والسفه، وأن يقع الاعتدال في منتصف المسافة بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط؟

وهذا الذي يحدث داخل الذرة، نواة بها برتونات ذات شحنة موجبة؛ يدور حولها الكترونات ذات شحنة سالبة، وكلاهما بنفس المقدار، وتساوي الشحنات السالبة والموجبة هو الذي يجعل الذرة مستقرةً ومتزنةً كهربائيًّا... هذا اتزان مفهوم وتقليدي...

ولكن داخل تلك النواة ما الذي يجعل البروتونات الموجبة منجذبةً لبعضها البعض؟ ما الذي يجعل شحنات متماثلة تتجاذب بدلًا من أن تتنافر؟ على الرغم أنه لا يوجد معها داخل النواة سوى تلك الأجسام المتعادلة التي لا شحنة لها المسماة بالنيوترونات؟

ما هو سر ذلك النيوترون المتعادل؟ هل يحمل شفرة الاتزان أم إنه هو الآخر جزء يؤدي دورًا يفرضه قانون أكثر تعقيدًا؟

دعنا نلاحظ شيئًا آخر. إننا عادةً ما نفترض أن الأشياء المتقابلة أو المضادة لبعضها البعض هي بالضرورة أشياء متزنة كالخير والشر مثلًا. ولكن ماذا عن الضوء والظلام؟ الحرارة والبرودة؟ العلم والجهل؟ الأبيض والأسود؟ هل هي أيضًا متضادات متزنة؟

للوهلة الأولى تبدو كذلك، ولكن بشيء من التعمق نجد أن هذه المعكوسات هي أزواج تضم أشياء ولا أشياء؛ فالظلام ما هو إلا انعدام الضوء، فالضوء شيء والظلام لا شيء. والبرودة ما هي إلا انعدام الحرارة.

والجهل ما هو إلا انعدام العلم، والأبيض هو كل الألوان والأسود هو انعدام الألوان. أشياء وانعدام أشياء. أشياء بلغت من أهميتها أننا نفتقد عدم وجودها؛ فأطلقنا عليها ألفاظ تعبر عن افتقادنا لها. أم أن الأمر ليس كذلك؟ هل الميزان الذي نعرفه هو مجرد رمز لفكرة تفوق قدرتنا على الاستيعاب؟

إن في سيرة حياة ياسين عبد القادر كما حكاها بنفسه لما يدع تلك الأفكار تتزاحم في رأسي بلا إجابات؟

***

لم أكد أجلس على كرسي مكتبي حتى دق جرس التليفون كانت سكرتيرة أحمد قاسم وأبلغتني بأنه يريد مقابلتي فورًا.

لم أفهم معنى هذا الاستدعاء الفوري، فالقسم الذي أديره لا يتبع أحمد قاسم نهائيًّا، ومقابلاتي معه كانت دائمًا محدودةً للغاية...

وكل معلوماتي عنه أنه رجل يخفي تحت هدوئه الظاهري ذكاءً حادًّا؛ يقترب من الدهاء الشديد، ومعروف عنه في المركز أنه مهندس الصفقات الخارجية؛ الذي لم يكن ياسين عبد القادر ليوقع باعتمادها إلا بعد أخذ الضوء الأخضر من أحمد قاسم.

دخلت إلى مكتبه بعد أن سمحت لي السكرتيرة بالدخول. استقبلني بابتسامة هادئة تحمل الكثير من الخبث، أو هكذا أوحت لي.

قام من على كرسيه وصافحني، وأشار إلي بالجلوس أمامه واتصل بالسكرتيرة تليفونيًّا وأمرها بعدم إدخال أي كان حتى ينتهي من اجتماعه بي.

قال بلهجة حازمة:

- قهوتك على الريحة، مش كده؟

لم ينتظر ردي، وضغط على الزر لاستدعاء الساعي، وطلب لي قهوةً على الريحة، وطلب لنفسه قهوةً سادة، ثم بدأ الحديث قائلًا:

- إنت بقالك معانا عشر سنين وأربع شهور، كنت فيها مثال الموظف المجتهد، كل رؤسائك اللي اتعاملوا معاك من قبل ما تمسك القسم بتاعك، اللي رشحك له ياسين بك، أو بمعنى أصح فرضك فيه، أكدوا أنك متميز في شغلك، وبتقدر تحلل العينات بعينيك حتى قبل ما تطلع نتيجتها على الأجهزة...

بتتعامل مع الكمبيوتر بسلاسة شديدة لدرجة أنك كنت بتعدل أحيانًا البرامج اللي بيعملها قسم الكمبيوتر، وبتعرف تقنعهم بوجهة نظرك. تميزك في الرياضيات ما يقلش عن قدراتك في الكيمياء.

صمت قليلًا ثم قال:

– إنما كل ده ما يأهلكش لرئاسة قسم التحاليل البيولوجية؛ خصوصًا إنه متعارف أن القسم ده لازم يرأسه متخصص في الميكروبيولوجي، وكان الأقرب إنك تكون رئيس لقسم التحاليل الكيميائية، إنما ده طبعًا قسم صغير، وياسين بك كان عايزلك وضع أكبر.

حاولت مقاطعته، ولكنه أسكتني بإشارة من يده قائلًا:

– عارف إنك حاتقول إنك أخذت دبلومات في الميكروبيولوجي، ومنها دراسات متطورة في أمريكا. إنما كل ده ما يمنعش إنك كنت الطفل المعجزة في المركز، طبعًا مش لمجرد إنك بلدياته، لأن ثلاث إربع المركز من كفر سلطان بما فيهم مجلس الإدارة كله، ومتهيأ لي خطوبتك لبنته كانت نتيجة أكثر منها سبب. يا ترى كل ده ليه؟

اعتقدت أنه سيكمل حديثه، وأن سؤاله كان مجرد مقدمة لإكمال جملته ولكن هز رأسه مشيرًا أنه ينتظر مني إجابةً؛ فقلت:

– الحقيقة ياسين بك كان دائمًا بيقول إنه كان صديق مقرب لوالدي، وإنه مدين له بكثير، معرفش، وكان بيقول كمان إني مجتهد وأستحق...

قاطعني قائلًا:

– كل ده كلام للاستهلاك، إنما سر علاقتكم إيه؟

– الحقيقة أنا ماعرفش أكثر من كده، حضرتك عندك معلومة عايز تقولها لي؟

– عمومًا مش هو ده الموضوع اللي جايبك علشانه. إنت وصل لك كلمة السر الخاصة بياسين على كمبيوتر المعمل مش كده؟

فُوجِئت بلهجة الثقة في كلامه، ولكن لم يبد علي أي توتر وأجبت بثقة:

– إنت حضرتك جبت الكلام ده منين؟

– هناء اللي قالته لك صح؟

قالت لي إيه؟

– بقالك قد إيه ما شفتش ياسين بك يا إبراهيم؟

– من ساعة ما دخل المستشفى.

– وهناء أقنعتك إنه هو اللي بعت لك كلمة السر، مضبوط؟

– يا أفندم كلمة سر إيه؟

– كلمة السر اللي فتحدت بيها الكميوتر، ودخلت على برنامج ياسين بك، بلاش استعباط.

– أنا في الحقيقة مش عارف حضرتك بتتكلم عن إيه.

– اللي عاوز أوصله لك إن هناء لعبت بيك، أوهمتك إن والدها هو اللي بعث لك كلمة السر، وعايزك تفتح الكمبيوتر بتاعه في المعمل، وفيه أسرار كثير في الكمبيوتر مش عايز حد يعرفها غيرك إنت وهي، لأنه مش بيثق في اللي حواليه. مش ده اللي حصل بالضبط؟

أنا مش عايزك تجاوب دلوقت، فكر في اللي قلته لا، هناء بتحطك في وضع مريب، وده مش حايبقى في صالحك خصوصًا أن الدكاترة بيأكدوا أن ياسين بقت أيامه معدودة، وساعتها مش حتنفعك بحاجة...

لو أن ياسين فعلًا هو اللي بيوصل لك المعلومات من خلالها كان يبقى وضع ثاني، لكن الحقيقة غير كده، اللعبة دي كلها من اختراعها...

– أنا بصراحة لسه مش فاهم حضرتك عاوز مني إيه بالضبط، لأني مش مستوعب الكلام اللي بتقوله.

– لأ، إنت فاهم أنا بأقول إيه، فكر إن مصلحتك إنك تبقى معانا. اعتبر المقابلة انتهت دلوقت، فكر وحانتقابل ثاني...

***

عندما خرجت من مكتب أحمد قاسم تملكني تفكير واحد فقط، إنني يجب أن أذهب فورًا للمعمل وأدخل التاريخ واليوم في البرنامج لأرى ماذا هنالك قبل أن يتخذ أي منهم خطوات تمنعني من مواصلة ما بدأته، وأيا إن كان الطرف الذي يجب أن أقف معه، فيجب علي أن أصل إلى ما خبأه ياسين بك تحدث أي ظرف من الظروف...

دخلت المعمل بخطوات ثابتة إلى جهاز الكمبيوتر، وأدخلت كلمة السر، ودخلت إلى الصفحة التي كتبت بها الأبيات وكتبت في خانة التاريخ:

التاريخ: 1889 / 07 / 13

الساعة: 09 / 08 / pm

مع آخر حرف اختفت الصفحة، وفُتِحت صفحة أخرى كُتِب فيها بنفس الخط:

لا بأس؛ أنت عند حسن ظني حتى الآن، احفظ تلك الكلمات جيدًا، وحظ سعيد في باقي مشوارك، فأنت لن تحتاج لهذا البرنامج بعد الآن.

**على بعد ذراع مني تقف راهبتان**

**ارجع البصر هل هو وجه إنسان**

**في مسرحيته تركت لـك رسالة**

**مفتاحها أخفيته بأسلوب فنان**

**حتى تعرفه اكـتـب لي رسالة**

**بـقـامـوس ذلـــك الـرســام**

**فما رقم هاتفي بعد سبعة وزائدان**

**إلا اســـم ذلـــك الـفـنـان**

لم أتوقف طويلًا عند الكلمات، كتبتها على ورقة صغيرة وأخفيتها في فمي، فقد خطر لي هاجس أنه قد يتم تفتيشي قبل خروجي من المركز...

– (Magnaporthe grisea)؟ وده يطلع إيه بالضبط؟

– قلت لي يطلع إيه؟ ده يا سيدي الاسم العلمي لنوع من الفطريات، تتحديدًا بينتمي للفطريات المسببة لأمراض النبات (Plant–Patho-genic Fungus)...

– للنبات؟

– أيوه، بيسبب أمراض للمحاصيل الزراعية، وبالذات الرز والقمح والشعير، بالبلدي نوع من الآفات الزراعية، إنما من النوع العنيف، لأنه بيتكاثر بطريقة جنسية وغير جنسية، وبيصيب السيقان والجذور، وطالما تواجد حتى ولو في جزء صغير من المحصول تبتدي بذوره تنتقل بسرعة بالهواء وتعدي المحصول كله...

ولما المحصول يكون في بدايته بيكون قاتل لأنه بيمنعها من عملية التمثيل الضوئي، وفي المراحل المتقدمة بيقلل من عملية التمثيل الضوئي، وبيمنع وصول المياه والمواد الغذائية بين الجذور والسيقان، ويؤدي في النهاية لموت النبات والقضاء على المحصول.

– طيب، مش يمكن مش بيحضروها ولا حاجة، وبيحاولوا يلاقوا طرق جديدة لمقاومتها؟

– الكلام ده يبقى مضبوط لو كانت كميات معملية صغيرة جدًّا، وبيستخدموا مواد وكيماويات بكميات كبيرة وبيحاولوا دراسة تأثيرها على الفطر، إنما إحنا اتأكدنا إن الكميات المنتجة من الفطريات بتزيد يوم عن يوم...

وكمان حاجة ثانية: الفطر ده مش موجود في أرضنا أصلًا فإيه الداعي يعملوا التجارب دي هنا...

وحاجة ثالثة؛ ما بيعلنوش ليه إنهم بيعملوا تجارب من النوع ده عندنا وفي مصنع مبني على أرضنا. ده نوع خطير من الآفات، ويكفي إنك تعرف أنه فيه أقاويل أن أمريكا وروسيا استخدموه كنوع من الأسلحة البيولوجية في الحرب العالمية الثانية لتدمير محصول اليابان من الرز.

- حرب بيولوجية على النبات؟ أنا سمعت على "الأنتراكس" أو مرض الجمرة مثلًا كسلاح بيولوجي ضد البني آدمين، إنما ضد المحاصيل؟!

- ده نوع من استراتيجية التجويع... لما يقضوا على محصول رئيسي زي الرز في اليابان اللي هو زي العيش عندنا يقدروا يفرضوا شروطهم على عدوهم.

- طيب وبيعملوا الكلام ده عندنا هنا ليه بالذات؟

- ده اللي لسه ما نعرفوش، وما نعرفش إيه علاقة ورد النيل بالموضوع.

- طيب والفطريات دي، مالهاش مبيدات؟

- ليها مبيدات، إنما النوع ده مبيداته غالية جدًّا، ومش موجود منها عندنا. والمصيبة أن التقارير اللي قدرنا نوصل لها والمنشورة من الهيئات الزراعية العلمية إنه لحد دلوقت ما فيش علاج فعال مية في المية لنوع الفطريات دي بالذات، لأنه قادر إنه يتحول وراثيًّا وينتج سلالات قادرة على مقاومة المبيدات باستمرار.

- طيب؛ إيه الحل إذا أصاب المحصول؟
- حرق المحصول!!

***

كنت قد عزمت أن أتصل بهناء فور خروجي من المركز لمقابلتها في أي مكان، ولكني عدلت عن ذلك خوفًا من أن أكون تحت المراقبة، وآثرت أن أذهب وحدي إلى الكافتيريا حتى أفكر في حديث أحمد قاسم.

كانت عيناي تنظران للمرآة بصورة تلقائية طوال المسافة التي قطعتها، لم تكن هناك أي سيارة تتبعني ولكني أحسست أني مراقب ولا أدرى كيف.

والآن ماذا أفعل؟ هل أنضم إلى فريق أسعد مندور؟ لطالما كنت أفتقد الارتياح مع هؤلاء الناس، ولم يكن الود سمة العلاقة بيننا طوال العشرة الأعوام الماضية، فكيف، أتحول إلى المعسكر الآخر لمجرد تهديد قاسم لي بأن مستقبلي في أيديهم بعد ياسين عبد القادر؟

ليس هذا فقط، فقد كان كلامه منطقيًّا، أنا لم أرى ياسين بك منذ دخوله إلى المستشفى، ولا أدري على وجه اليقين ما إذا كانت الرسائل التي أتتني من هناء هي من عنده فعلًا أم أنها أوهمتني بذلك؟

ولكن كيف؟ إن طبيعة الرسائل كانت تدل على إنها مرسلة من شخص متمرس في التعامل بالشيفرة والأكواد. ولكن ما أدراني، لعل

هناء كانت تلميذته في هذا المضمار؛ وفي نفس الوقت ما الذي يعود علي إذا تعاونت مع مندور وأعوانه؟ الإبقاء على منصبي في المركز؟

هيهات؛ هذا لن يكون على أي حال. إن تعاوني معهم هو خسارة محققة على طول الخط، أما مع هناء فعلى الأقل هو مجرد شك؛ ربما أرادوا أن يزرعوه في داخلي. لكن مهلًا ما الذي زج بي أصلًا بين الفريقين؟

هي ليست معركتي من البداية، وما الذي أحصل عليه عند الوصول لسر أو كنز ياسين عبد القادر؟ لست شريكه، ولست ابنه. ولكن مهلًا أنا الوحيد الذي يمتلك طرف الخيط الآن.

ولكن ما فائدته فأنا أحتاج لهناء لفك طلاسم تلك الألغاز، فالحل لا بد أن يكون في منزل ياسين بك كما كان اللغز الأول، ولولا هناء لما كنت عرفت أبدًا ذلك المجنون الذي قطع أذنه.

هل أساوم على ما معي وأختفي للأبد؟ وما ذنب تلك التي وثقت بي؟ هل تلك هي أخلاق الفرسان؟ هأهأ... فرسان؟! دعنا نكلم ذلك الفارس الذي لم أره منذ زمان لعلي أجد عنده إجابةً لما يجب أن أفعله الآن.

تعددت لقاءات ياسين عبد القادر وجميل الحسيني مع المجموعة التي تعرف سر المصنع في بيت أحد معارف الحسيني في البلدة المجاورة لكفر سلطان؛ حتى يكونوا بعيدين عن الأنظار...

وعلى الرغم إن جميل الحسيني كان ذا شخصية قوية تميل للعنف، وعلى النقيض كان لياسين قوة إقناع جارفة على المجموعة؛ يتحدث

فينصتوا السمع، يحبونه وينجذبوا إلى حديثه، ولكن ذلك لم يكن ليزعج جميل الحسيني، فقد كانت عيناه دائمًا مركزةً على الهدف وهو كشف سر هذا المصنع، وتخليص بلدته منه إلى الأبد...

وإذا كان لحديث ياسين هذا التأثير البالغ؛ فالمجموعة بحاجة إليه لاستقطاب آخرين حتى يشكلوا عصبةً تستطيع مواجهة إدارة المصنع، ومن ورائها العمدة وأعوانه...

وفي إحدى جلساتهم قال جميل:

– ما شاء الله؛ عددنا ابتدى يزيد بشكل مبشر، لو قدرنا نستقطب نص البلد، ونقف وقفة رجالة ونواجههم باللي عرفناه العمدة مش حايقدر علينا، وخصوصًا إن معالم الموضوع ابتدت تبقى واضحة جدًّا والبركة في رجالة المصنع.

رد ياسين:

– فيه معلومات جديدة؟

– أيوه يا سيدي، عارف الجزء اللي بيفصلوه من ورد النيل ده فائدته إيه؟

– ؟؟

– اكتشفوا إنه تربة صالحة لنمو الفطر، وبيخليه يتكاثر بشكل غير عادي أفضل من أي مادة ثانية، وده أكيد كان اللي اتوصل له البروفيسور الإنجليزي بتاعهم، وعلشان كده اختارونا احنا بالذات لأنها منطقة غنية

بورد النيل، وعرض النيل هنا بيسمح بجمعه بكميات كبيرة. ده على الأقل السبب الظاهري لحد الآن.

– يعني أسباب اقتصادية بحتة، مادة رخيصة ومتوفرة في الطبيعة ببلاش وبيساعد على نمو الفطر بكميات اقتصادية تخلي سعره في الأرض. إنما برضه السؤال المهم همه ناويين يستخدموه فين؟

– مش هي دي القضية، دي مواد محظورة التعامل معها دوليًّا إلا تحت إشراف رقابي من هيئات دولية، ويكون مرخص لهم بعمل أبحاث ومعروف أغراضها، وبعدين اللي يهمنا إنها ما تبقاش في أرضنا، ويروحوا يصنعوها في أي داهية ثانية، وبعدين إنت ناسي إيه اللي حصل للعمال يوم الحادثة، واضح إنه بيستعملوا مواد سميتها عالية...

– بس أنا أعتقد أن تجميع أكبر عدد مش هو المشكلة حانواجههم بإيه؟ على بال ما نشرح قضيتنا، ونطلب التفتيش لإثبات أنهم بيصنعوا الفطريات دي حيكونوا خفوا كل حاجة وحايكون شكلنا زي الزفت.

قال كامل:

– تيجي تكبس عليهم مرة واحدة، ونحط إيدينا على الإنتاج، وبعدين نبعت للحكومة...

أثار الرأي استحسان المجموعة المتحمسة وأدلى كل منهم بدلوه، حتى جاءهم ياسين الهادئ:

– يا جماعة؛ الكلام ما يجيش كده، لو استخدمنا العنف الموضوع مش حايبقى بالساهل كده، وده عندهم أكثر من ثلاثين فرد أمن ومسلحين،

وممكن حد مننا يتعور أو يموت، وساعتها حايكون لهم الحق إنهم بيدافعوا عن ممتلكاتهم، وكمان ممكن حاجة تتسرب من الفطريات للأرض الزراعية، ويبقى موضوع ما نعرفش نلمه؛ لا دلوقت ولا بعدين.

قال جميل:

– أمال إنت شايف إيه يا ياسين؟

– أنا كنت متحمس زيكم أول ما جيت بالضبط، إنما القوة العضلية بالرجالة بس مش حاتجيب نتيجة...

هب كامل الأشرم بالوقوف قائلًا:

– صح كلامك، إحنا لازم نجيب سلاح قبل ما ندخل عليهم.

رد ياسين:

– يا كامل مش قصدي، الناس دي مستفة أوراقها كويس قوي، وبتشتغل شرعي، وتحت سمع وبصر الدولة، واقتحام المصنع اللي بتفكروا فيه ده حايخلينا في شكل همج، ومش بعيد السلطات اللي بتقول عنها دي تلمنا كلنا في السجن.

قال جميل:

– أمال قصدك إيه؟

– لسه ما عنديش أفكار محددة، إنما لازم نتأنى ونفكر إزاي نتسلل بينهم أكثر، ونحاول نوصل لمستندات في إيدينا، ونقدر ساعتها

نستعين بسلطات أعلى من العمدة ورجالته، ونجيبهم يعاينوا المصنع بنفسهم وساعتها مش حايقدروا يمنعوهم من الدخول الفوري، وتكون رجالتنا جاهزة إنهم يدلوهم على أماكن التخزين، خصوصًا إنكم قلتم إنها متخزنة في براميل تحت الأرض.

– بس ده موضوع حايطول، واحنا مش عارفين المدة اللي قاعدينها هنا قد إيه ومخططهم إيه بالضبط.

– يبقى لازم نبتدي فورًا وبسرعة، نشوف حاندخل جواهم إزاي، وفي نفس الوقت ننظم نفسنا ونبتدي نشرح الموضوع لأكبر عدد ممكن من أهل البلد علشان ما تبقاش مجموعة صغيرة يُسْتَهان بها في الكلام. بس أهم حاجة كل واحد بيكلم الناس اللي بيثق فيها بس مش عايزين الكلام يتنطور.

توجه جميل الحسيني بالكلام لباقي المجموعة قائلًا:

– إيه رأيكم يا رجالة؟

رد الجميع بالإيجاب، واتفقوا على تقسيم الأدوار بينهم وبعد أن انصرف الجميع، وبقي ياسين وجميل وصاحب الدار فقط، قال ياسين لجميل:

– جميل، فيه مشكلة صغيرة، أنا مش حاقدر أستنى في البلد كثير، ومنتظر خطاب تعييني في الحكومة في أي لحظة، أنا مش معقول أفضل عالة على والدي كل الوقت ده، وده موضوع مش باين حايخلص امتى.

فكر جميل لحظات ثم قال:

– سيب الموضوع ده علي أنا. حاشوف له تصريفه.

***

عندما وصلت إلى الكافيتريا وجدت هناء جالسةً في نفس المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه. لم أستطع التراجع بعد أن رأتني، فذهبت إليها. كانت واجمةً بعض الشيء، ولم تُفَاجأ كثيرًا بحضوري فقلت:

– ياه، وكأننا متواعدين دلوقت.

– اقعد يا إبراهيم.

– فيه إيه مالك؟

– النهارده كنت باتحاسب حساب الملكين، تنت سهير وأنكل أسعد كانوا عاملين لي محاكمة عسكرية.

– علشان إيه؟

– قالوا لي إني عرفت حاجات من بابا ومخبياها عليهم، وأنا وإنت بنحاول نوصل لمستندات مهمة خاصة بالمركز وبكل شغل بابا، وإنك بتستغلني علشان تساوم لما توصل للمستندات دي، وإنهم عائلتي وأقرباني، وإني مش مفروض أسمع الكلام اللي بيقوله لي أبويا لأنه في شبه غيبوبة، ومش واعي بيقول إيه وكلام كثير بيسم البدن عن...

وذرفت دمعتين حارتين، فأدركت إنها تقصد الحديث عن والدتها التي كادت يومًا ما أن تعرض ذلك المركز، وكل أعمال ياسين عبد القادر للضياع لأنها سربت معلومات دقيقة للمنافسين...

كانت قصةً معروفةً للجميع؛ جعلت ياسين عبد القادر يقرر طلاقها لولا أن وافتها المنية بعد ذلك بفترة قصيرة... حاولت أن أخفف عنها، وأربت على يديها، فقالت لي وهي تجفف دموعها:

- عملت إيه، دخلت المعلومات على الجهاز؟

لم أستطع الإنكار، فلم أكن أجيد الكذب عليها، بالإضافة إني كنت قد عقدت العزم على عدم تغيير معسكري، وزادني حديثها الواضح معي إصـرارًا على ذلك، فقصصت عليها ما كان مع أحمد قاسم، ولكنني أغفلت الجزء الخاص بتشكيكه فيها فقالت:

- ده معنى كده إننا تحت عينيهم من الأول؟

- تحت عينيهم آه، إنما ميتهيألش إنهم عارفين تفاصيل كثيرة، محاولة التوقيع بيننا معناه إنهم لسه بيصطادوا، عارفين الخط المفتوح بيننا وبين والدك، ولما كان قادر يتكلم...

واحتمال يكونوا عرفوا إني فتحت جهاز الكمبيوتر في المعمل، لأني في أول مرة دخل علي سامح اللي بيشتغل في المعمل اللي جنبي وشافني وأنا قاعد على الكمبيوتر، مش عارف، بس لو كانوا عرفوا حاجة فعلًا ما كانتش دي تبقى ردود أفعالهم...

– صدقني يا إبراهيم أنا متأكدة إن بابا كان واعس لكل كلمة بيقولها، وما كانش بيخرف في الكلام...

– أنا واثق من كده، وخلينا نبقى أسرع منهم. اسمعي يا ستي السجع الجديد، بتاع والدك...

أخرجت الورقة وأعطيتها إياها:

**على بعد ذراع منى تقف راهبتان**

**ارجع البصر هل هو وجه إنسان؟**

**في مسرحيته تركت لـك رسالة**

**مفتاحها أخفيته بأسلوب فنان**

**حتى تعرفه اكـتـب لي رسالة**

**بـقـامـوس ذلـك الـرسـام**

**فما رقم هاتفي بعده سبعة وزائدان**

**إلا اســم ذلـك الـفـنـان**

– إحنا مش حانخلص من الفوازير دي؟

– لأ؛ ولقاها سهلة المرة اللي فاتت عامل لك أربع أبيات مش اثنين.

– على بعد أمتار "مني"؟ منه فين؟ أكيد ما يقصدش المستشفى، الكلام ده مكتوب من سنين.

– طبعًا، بس منه دي فعلًا تطلع إيه، من صورته مثلًا؟

– بس بابا عنده صور كثير في البيت، عنده صورة كبيرة في الصالة، وفي مكتبه وفي أوضة النوم، وكل البيوت اللي عندنا في مارينا وفايد فيها صوره، وفي مكتبه في المركز، أنهو صورة فيهم؟

– أكيد يمكن في المكتب زي ما لقينا اللغز اللي فات.

– إنت ناسي، المرة إللي فاتت أنا وريتك بس الصورة بتاعة فان جوخ اللي رابط فيها ودنه، وماكانتش دي المقصودة أصلًا.

– معاك حق. ولو لفينا على كل صوره لازم حانثير شبهة الجميع، ثم أنه مش معقول تكون الإشارة مفتوحة قوي كده، ده ولا عشر صور زي ما بتوصيفي.

– يكون منه، يعني مكان ما يقعد؟ بس ما هو ليه مكان محدد في كل غرفة من دول، يعني هي هي.

– يكونش يقصد... أقصدي يعني...

– قصدك إيه؟ قول...

– ما تفاهمنيش غلط، إنما جايز يقصد مدفنه؟

تمالكت نفسها ولم يبد عليها التأثر وقالت:

– والله ده احتمال ممكن خصوصًا إنه لما ساب الرسالة افترض إنه ممكن يكون هناك... طيب خليني أطلع هناك دلوقت كأنني بأزور جدتي، وانتظر مني تليفون.

لم يمض أكثر من ثلث ساعة حتى ظهر رقم هناء على تليفوني المحمول، ورددت بسرعة؛ فوجدت صوتها لاهثًا:

– إبراهيم، أنا رجلي مش شايلاني، وكأني أول مرة أزور مدافن العائلة... حاسة كأنني جايه أزور بابا.

– هناء بلاش الأفكار الخايبة دي، باباك لسه عايش وفي المستشفى، واحنا بننفذ اللي هو عايزه.

– أنا فاهمة بس مش عارفة إيه اللي جرى لي. خليك معايا على التليفون ما تقفلش.

– أوكي، إنتِ فين دلوقت؟

– لسه نازلة من العربية. يا خبر أبيض أنا نسيت المفتاح لازم أشوف حد يفتح لي من الغفر اللي هنا.

– هو المدفن له مفتاح.

– أيوه مفتاح القفل. استنى لحظة.

وسمعتها تتحدث لأحد الأشخاص الذي رحب بها ترحابًا حارًّا، وصاح في أحدهم بأن يذهب ويحضر المفتاح فورًا.

مرت لحظات حتى تحدثت هناء مرةً أخرى:

– أيوه يا إبراهيم، خلاص أنا داخلة، أهه... أنا قدام المكان اللي بابا حيدده لدفنه حواليه أرض فاضية مش شايفة أي حاجة من اللي قال عليها. إيه اللي ممكن يكون هنا راهبتين؟ استنى... يمكن يقصد عمتي وجدتي؟

– وعمتك وجدتك راهبتين إزاي، إنتِ أصل جدودك مش مسلمين؟

– أنا بحاول أفسر اللي قاله يا إبراهيم، جه في دماغي علشان عمتى ماتت صغيرة، وما اتجوزتش...

– طيب عمتك ماشي، وجدتك كمان ما اتجوزتش؟

– إحنا حانهزر دلوقت؟

– حاولي تركزي يا هناء، مش معقول يكون قاصدهم لأن أكيد مدافن الستات بتبقى في حته والرجالة في حته على بعد ذراع يعني بالكثير متر... لفي حوالين المدفن ما فيش أي حاجة؟

– صحراء جرداء مافيش حتى نبتة طالعة من الأرض.

سمعت صرخة هناء، ويبدو أن المحمول وقع من يدها، فهتفت:

– هناء. هناء إنتِ فين؟ إيه اللي جرى؟

***

زادت أعداد المجموعة بشكل مطرد في غضون فترة قصيرة حتى وصلت إلى أكثر من سبعين فردًا، فاقترح جميل الحسيني أن يقسموا إلى مجموعات حتى لا يثير اجتماعهم الشبهات والأقاويل، ولكن ياسين عبد القادر كان له رأي آخر:

– مهما كانت المجموعات صغيرة؛ برضه حاتثير الشبهات، أفضل شيء أننا ننشئ جمعية أو اتحاد أو أي كيان شرعي يقوم يبقى عندنا مقر أو أعضاء...

قال كامل الأشرم:

– صح يا باشمهندز ياسين، نعمل جمعية أهلية، ونشهرها نجوم نجدر نجتمع في الكفر مش في الخفا زي ما بنعمل كده، وكمان نجدر نتجابل بأعداد كبيرة.

هز جميل الحسيني رأسه قائلًا:

– فكرة وجيهة، وأنا حابتدي من بكره أشوف إجراءات الجمعية، وإيه المطلوب، وكمان ده حايساعدنا إننا نبقى عندنا مجموعة متفرغة تتابع شؤونها زي موظفين يعني وخصوصًا إن بعضنا بيقضي وقته كله تقريبًا على حساب شغله.

فهم ياسين أن جميل التقط طرف خيط يحل به مشكلته وبشكل لائق فابتسم له ابتسامةً وكأنه يشكره.

كان جميل مقتنعًا أن هذه القضية تحتاج لشخص مثل ياسين؛ هادئ وراجح العقل ويستطيع أن يرى الأشياء بشكل منظم وواضح. هذا على الأقل في المرحلة الأولى حتى تشتد شوكتهم، عندئذ سيحتاج الأمر إلى جرأة جميل الحسيني وعزمه الذي لا يلين.

كان جميل الحسيني رجلًا ذا بصيرة حادة؛ يستطيع أن يرى لمسافات زمنية بعيدة، يرى هدفه بوضوح، يعلم إمكانياته وإمكانيات من حوله، ويعلم جيدًا أن الله خلق الناس كل لما يُسِّر له؛ كل له ميزاته وعيوبه، ولكل مرحلة رجالها.

أدرك من الوهلة الأولى أن الطريق إلى هدفه يحتاج إلى التخطيط أولًا، وجذب أكبر عدد من الرجال بالإقناع والتأثير والفهم حتى يتشبعوا بالفكرة ويركبوا معه السفينة بمحض إرادتهم وهم ممتلؤون بالحماس... بعدها يأتي دوره كربان ماهر بالوصول إلى هدفه...

كان على قناعة تامة أنه لا يوجد هدف أنبل أو أسمى من خدمة بلدته وأهل بلدته، وعلى قناعة أكبر أن العمدة وأعوانه قد أتوا إلى بلدته بالشيطان نفسه ممثلًا في هذا المصنع وعلى رأسه الأفعى بهاء جعفر.

على الجانب الآخر كان ياسين عبد القادر بفطرته ودراسته الهندسية عبقريًّا، في التخطيط والتنظيم ليس فقط على الورق وإنما وبفكر منظم وسلس قادر على إقناع الآخرين بفكره وطريقته.

كان لكل منهما كاريزمته الخاصة، فجميل الحسيني ذو "كاريزما" شخصية تجعل الآخرين منجذبين إليه حتى دون أن ينبس بكلمة، يأمر فيُطَاع حتى ولو كان بدون اقتناع، في حين كان لياسين عبد القادر "كاريزما" فكرية تجعل الآخرين منجذبين لحديثه وفكره المتسلسل المقنع المغلف بشكل راقٍ حتى لو كان ما يقوله هو محض ترهات.

كانا يشكلان ثنائيًّا فريدًا من نوعه على الرغم من صغر عمريهما، كانا مثل لينين وكارل ماركس. فكما كان لينين قائدًا أسطوريًّا؛ كان كارل ماركس مفكرًا عبقريًّا.

لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى تم إشهار جمعيتهم، والتي جعلوا شعارها المعلن هو "من أجل جعل كفر سلطان قريةً نموذجيةً" وأهدافها معاونة المزراعين في شراء أفضل التقاوى والبذور واستخدام الطرق العلمية في الزراعة لرفع إنتاجية المحصول، وكذلك الاهتمام بالنظافة العامة في الطرق وحول البيوت، وتخصيص أماكن لإلقاء النفايات، وعدم تلويث مجرى النيل، وتخصيص سيارات لنقل النفايات...

ولحل مشكلة التمويل المادي أخذت الجمعية على عاتقها تسويق المنتجات الزراعية للقاهرة مقابل نسبة من البيع لاستخدامها في تحقيق أهداف الجمعية بدلًا من أن تتسرب الأرباح إلى جيوب التجار والسماسرة، مما يعني من ناحية فائدةً ماديةً أكبر للمزراعين، ومن ناحية أخرى عدم إرهاقهم بتمويل الجمعية.

لم يكن ذلك طبعًا على هوى المنتفعين من التجار الذين كانوا يشترون المحصول من الفلاحين بسعر بخس، ويبيعونها بأضعاف مضاعفة في المدن.

ولكن كانت المشكلة هي شرارة البدء، أو التمويل الأول للجمعية، رأس المال. فمساهمة الأفراد لم تكن كافيةً لبدء تدوير العجلة.

استطاعوا جذب مبلغ لا بأس به من أغنياء الكفر، وإن كانت على مضض، تارةً بالضغوط العائلية، وتارةً أخرى بالإغراء بأرباح منتظرة،

وتارةً ثالثةً بالتهديد المستتر؛ الذي كان يجيده جميل الحسيني... ومع هذا لم يكن المبلغ كافيًا، حتى خطرت على بال ياسين فكرة لا تخطر على بال، أحد!! أحد غيره!!

***

ما هي إلا لحظات حتى جاءني صوتها مرتعشًا...

– أنا آسفة يا إبراهيم؛ الغفير أصله جه من ورايا ما حستش بيه، كان بيسألني إذا كنت عايزة حد يقرأ قرآن.

– سيبتي ركبي يا شيخة... بقول لك إيه؛ امشي من عندك الظاهر إن نظريتنا كانت غلط؛ لازم نفكر بشكل ثاني.

جلست على المائدة المقابلة لمدخل الفندق حيث اتفقنا أن نتقابل لإحساسنا بضرورة تغيير مكان مقابلتنا المعتاد.

جاءت هناء وهي ممتقعة الوجه وقد ظهر عليها جليًّا أنها مرت بتجربة سيئة وجلست قائلةً:

– كان لازم إنت اللي تروح مش أنا.

– أروح أزور مين في أهلك؟ أنا ما أعرفش حد غير أبوك.

– مش دي كانت فكرتك؟ بما أنه ما حدش أو ماكانش عارف هو ممكن يكون فين ساعة قراية الرسالة.

– أعتقد أنك اتفقت معايا في المنطق ده.

– أهي طلعت فكرة خايبة، حاتوديني فين تاني؟

– ما هو لازم نفكر بهدوء، كل الكلام متركب على بعضه يعني كل جملة مبنية على اللي قبلها. نراجعه تاني: راهبتان ووجه إنسان، الإنسان ده له مسرحية فيها رسالة أخفاها بأسلوب فنان، وعلشان نعرف الفنان نكتب رسالة بقاموس الرسام اللي رسم الراهبتين أو وجه الإنسان والفنان...

– بس بس، إحنا لسه في "منى"، أنا فاهمة إن كله مبني على بعض، بس ممكن يكون قصد أي مكان؟

فكرت قليلًا وقلت:

– بصي؛ بمعرفتي بوالدك كويس قوي، أكيد وقطعًا إنه قصد إنه في مكان معين مش ممكن يكونوا مكانين قابلين إننا نلخبط بينهم، لازم تكون الإجابة محددة جدًّا لأنه عمره ما كان بيحب النهايات المفتوحة.

ومن اللغز السابق واضح إنه إدانا إشارات محددة تؤدي لنتيجة واحدة مالهاش ثاني. صح؟

– صح، بس إيه المكان اللي هو واثق إنه حايكون فيه قبل سنين من الحالة.

– اللس هو فيها دلوقت ويكون محدد مالوش ثاني؟

– مش يمكن على بعد ذراع منه وهو بيكتب الفزورة؟

– يمكن حاجة على المكتب جنب الكمبيوتر؟ فيه حاجة ثابتة على المكتب.

– ده ممكن تكون زي ما هي من سنين؟

– لأ، ما فيش حاجة ثابتة على بعد ذراع منه، وهو قاعد قدام الكمبيوتر بتاع المعمل.

– طيب أمال إيه بس؟

كان الموضوع محيرًا فعلًا، ولكن خطرت لي فكرة:

– فيه حاجة كان دايمًا بيحتفظ بيها جنبه، على الكومودينو، مثلًا محفظة، نضارة، ما كانتش بتفارقه على بعد متر واحد منه؟

لعبت عيناها وهي تقول:

– بابا ما كانش له حاجة ثابتة بيحتفظ بها جنبه بالشكل ده، إنما فيه حاجة ما كانتش بتفارقه أبدًا حتى وهو نائم ولا وهو بيستحمى، حاجة على بعد ذراع بالضبط، دايمًا وطول الوقت.

– نعم؟ وساكتة من الصبح، إيه هي دي؟

ساعته!!

فكرت قليلًا وقلبت لها:

– والله دي منطقية جدًّا، وممكن يقولها في أي وقت وهو واثق أنها جملة سليمة، سواء كان ساعة ما كتب الرسالة، أو دلوقت في المستشفى... بس لو كان لا سمح الله مات واندفن كانت حتبقى معاه إزاي؟

ترددت قليلًا ثم قالت:

- بابا موصي إن ساعته تندفن معاه!!

شعرت بدقات قلبي تتسارع وقد بدأنا نقترب من الحل، وصاحت في هناء فجأةً:

- ساعة بابا معاك، أنا ما أخذتهاش منك بعد ما وصلتلك رسالته.

- أيوه مضبوط، دي عندي في البيت. بس إزاي وصى تندفن معاه وماكانتش بتفارقه، ورضي يقلعها ويديهالك؟

- لو ماكناش إحنا اللي وصلنا لرسالته كانت حاتفضل في إيده، إنما علشان إحنا اللي قرر إنه يدلنا على سره، سلمها يد بيد...

- طيب يلا بينا على البيت نشوف الساعة فيها إيه. ولا أقول لك؛ استنيني هنا وأنا حارجعلك بيها...

***

لم يمض على غيابي عن هناء أكثر من ربع ساعة ولكنها قالت لي ما إن شاهدتني:

- إنت إتأخرت كده ليه؟ أنا كنت حاجيلك، إنت أكيد قعدت تفحص في الساعه في البيت.

- يا بنتي أنا رحت وجيت جري، مالحقتش حتى أبص فيها، إنتِ بس اللي كنت منتظراني بفارغ صبر.

– طيب وريني.

أخذت تقلبها في يدها، وتقرأ كل المكتوب على ظهرها. لا يوجد شيء يدل على الراهبتين أو وجه الإنسان. ثم قالت وهي تمد بيدها إلي:

– أنا مش شايفة حاجة غريبة، هي الساعة اللي طول عمري باشوفها في إيده من صغري.

قلت لها وأنا أتفحص الساعة:

– الساعة دي مع باباك من إمتى بالضبط؟

– أنا طبعًا مش فاكرة بالضبط بقالها تقريبًا عشرين سنة، مش أقل من كده.

– يعني أنامش شايف فيها حاجة، يمكن لازم نفتح ونشوف قلبها.

– لأ. ما عنديش استعداد أبوظها، وممكن تطلع فكرتنا غلط من الأساس.

فكرت قليلًا ثم قلت:

– وكمان ساعة عزيزة على والدك بالشكل ده متهيألي يهون عليه إننا نكون مضطرين نفتحها، أكيد فيه حاجة موجودة من بره.

دققت النظر قليلًا في كل جزئية في الساعة، وبينما أنظر لمفتاح ملء الساعة متوقعًا أن أرى علامة التاج الذي يميز الساعات الرولكس، فُوجِئت بشكل غريب لا يمت لشكل التاج بصلة. فنظرت لهناء قائلًا:

– مش المفروض أن مفتاح الساعة يكون محفور عليه علامة الرولكس؟

مدت هناء يدها، وأخذت الساعة، ونظرت بتمعن قائلةً:

– مضبوط... متهيألي كده... فيه حاجة محفورة، بس مش باين منها حاجة. دي مش رسمة التاج اللي على المينا!

ثم نظرت في ساعتها قائلةً وهي تريني إياها.

– معاك حق، أي ساعة رولكس أصلية لازم يكون على مفتاحها التاج بارز بالشكل ده، مش محفور كمان. إنما يمكن العلامة اتشالت، وده مجرد شكل مالوش معنى مكان اللحام أو حاجة؟!

– دي لازم تتشاف بعدسة علشان نتأكد.

– أنا عندي عدسة كبيرة في البيت.

– الشكل ده أصغر من اللازم. قطره أقل من 3 مليمتر، عدسة عادية مش حاتجيبه...

ثم فكرت قليلًا وقلت لها:

– دي لازم تتشاف تحت عدسة ميكروسكوبية.

– ودي حنلاقيها فين؟

– عندنا في المعمل.

– حاتدخل المعمل ومعاك ساعة بابا؟ إنت المرة اللي فاتت كنت مرعوب وإنت معاك ورقة وخفت يفتشوك.

– ممكن ألبسها، ما حدش حايلاحظ. وخصوصًا إنها مش ملفتة قوي، وحاتبقى متغطية بحكم الجاكتة.

– أنا خايفة يا إبراهيم.

– قدامك حل ثاني؟

***

رحب بهاء جعفر بطلب زيارة ياسين عبد القادر له، واعتقد أنه قادم لإبلاغه بالموافقة على العمل معه... قام من على مقعده واستقبله بابتسامة عريضة قائلًا:

– أهلًا يا باشمهندس، ده إيه الزيارة الجميلة دي... ولو إنك اتأخرت علي شوية.

– أهلًا بهاء بك ومتشكر لك تحديد موعد بسرعة كده.

– ده مصنعك يا ياسين. هه امتى حانبتدي الشغل؟

– قريبًا جدًّا يا بهاء بك... بس أنا جاي لحضرتك في موضوع ثاني.

– خير؟ طلباتلك؟

– الحقيقة إنت عارف عملنا جمعية أهلية وهدفها تطوير الكفر و...

– مفهوم، مفهوم... ده مجهود طيب ولو إنكم حاتدخلوا كده عش الدبابير.

– إزاي يعني؟

– إنت فاكر إن التجار والسماسرة حايسكتوا إنكم تزاحموهم في أكل عيشهم؟

– آه، طبعًا أكيد، إحنا متوقعين كده، إنما إحنا كترة ومصممين على إننا نعمل من كفر سلطان قرية نموذجية.

– بس، إنتم محتاجين تمويل محترم، حاتعملوا فيه إيه؟

– الحقيقة هو ده إللي أنا جاي لحضرتك علشانه... بعد ما اتأكدت من نوايا أغراض المصنع الحقيقة أنا أدركت إنكم وبشكل غير مباشر بتساهموا برضه في تطوير الكفر

يعني البلد ابتدأت تقتنع إنكم أنعشتم اقتصادنا، وكمان بتخلصونا من ورد النيل اللي بيعوق الملاحة، وكمان حاتوفروا سماد رخيص ومفيد للبيئة. وبغض النظر إنكم عاملين الموضوع بغرض الربح إلا إنه برضه فائدة لينا. وعلشان كده أنا جيت لحضرتك...

ابتسم بخبث وقال:

– إيه؟ عايزين إننا نشترك معاكم في الجمعية؟

– والله ده يبقى شرف لينا... إنما طبعًا الاشتراك بيكون للأفراد من أهالي البلد.

– طلباتك إيه يا ياسين؟

– إحنا محتاجين حوالي عشرة آلاف جنيه علشان نقدر نبتدي نشاط التسويق واحدة واحدة كده لحد ما العجلة تدور. عشمي إني أستلفهم منك، وطبعًا ده حايكون بإيصال باسم الجمعية واتفاق على طريقة السداد.

ضحك بهاء جعفر وقال:

– إنت جامد قوي يا ياسين. ما توقعتش الطلب ده أبدًا، بس إنت عجبتني أنا حاسلفلك خمس آلاف جنيه، وده مبلغ كويس علشان تبتدوا وبضمانك إنت الشخصي. ماليش دعوة بالجمعية، موافق؟

– أنا مش عارف أشكرك إزاي يا بهاء بك، أنا موافق.

***

دخلت إلى المعمل بخطوات ثابتة واتجهت إلى الميكروسكوب ووضعت الساعة تحت العدسة الشيئية ذات التكبير لخمسين ضعفًا، ونظرت في العدسة العينية، ورأيت الشكل المحفور على مفتاح الساعة. وما إن بدأت ضبط بؤرة النظر حتى سمعت طرقًا على الباب، فأجبت بسرعة:

– مين؟

فُتِح الباب ودخل المساعد الخاص بي قائلًا:

– دكتور إبراهيم، أحمد بك قاسم طلب إن حضرتك تطلع له مكتبه أول ما توصل.

- طيب أنا طالع له حالًا.

توجست من هذا الاستدعاء ولكنني لم أشأ أن أتوقف عما بدأته، فضغطت على زر التصوير وسحبت الصورة في ماكينة التصوير وطويتها بسرعة، ووضعتها في جيب سترتي العلوي، ثم وضعت الساعة في جيب البنطلون، ومسحت الصورة من ذاكرة الماكينة وأطفأتها.

وفي ثوان معدودة كنت عند باب المعمل في طريقي لأحمد قاسم. ولكن لفت نظري شيء غريب، فاستدرت فوجدت شاشة "الكمبيوتر" كما هي على المكتب، ولكني لم أجد وحدة المعالجة المركزية للجهاز CPU، أو بمعنى أصح الحاسب نفسه. لم يكن له أي أثر في المعمل كله، وكأنه لم يكن هنا من قبل.

سرت بخطوات ثابتة تتنازعني الأفكار هل أصعد لمكتب أحمد قاسم أم أتوجه للباب الخارجي وأغادر المركز إلى الأبد، من الواضح أنهم وضعوا يدهم على الجهاز، ويحاولون بشتى الطرق فك كلمة السر، وربما يكونوا قد توصلوا إليها بالفعل بشكل أوبآخر.

تراجعت عن فكرة الهروب وصعدت إلى مكتب قاسم، وطرقت الباب وسمعت صوته الهادي يقول:

- اتفضل.

- صباح الخير يا قاسم بك.

– اتفضل اقعد يا إبراهيم. أنا طلبت لك القهوة.

– متشكر.

– هه، فكرت في اللي اتكلمنا فيه؟

– أحمد بك؛ أنا بصراحة مش شايف إيه اللي أفكر فيه... حضرتك بتقول حاجات ما حصلتش.

ابتسم ابتسامةً سافرةً وقال:

– مشكلتلك يا إبراهيم إنك فاكرنا تلامذة، ورحت إنت وهناء بسذاجة شديدة مغيرين مكان مقابلتكم، قال يعني مش حانعرف إنكم تقابلتم في الأوتيل بدل الكافيتريا. إنتم بتحاولوا تعملوا إيه بالضبط؟

– يا قاسم بك، هناء خطيبتي، وممكن نتقابل في أي مكان، ولَّا مطلوب مننا نحدد إقامتنا في مكان معين؟

– قول لنفسك القصة مش محتاجة الأفلام دي كلها. وعمومًا كلمة السر لدخول الكمبيوتر إحنا عرفناها خلاص، وعرفنا إنه فيه حد دخل عليها خلال الفترة اللي فاتت، وأثناء وجود ياسين بك في المستشفى. كان قدامك فرصة إنك تستمر معانا، بس إنت حاتضيعها بغباوة...

وآه؛ نسيت أقولك، تقرير الدكاتره النهارده الصبح بيقول إن ياسين عبد القادر دخل في غيبوبة عميقة، ومش منظور إنه يخرج منها، يعني

عايش على الأجهزة بمعنى أصح وحياته واقفة على قفلة زرار. مش كان أحسن لك تبقى معانا بدل البت بنت سماح؟

نزلت وقع كلماته علي بعنف شديد، ليس لمعلومة الوضع الطبي لياسين عبد القادر؛ فهي متوقعة بين لحظة وأخرى، وإنما لنعته هناء ببنت سماح بشكل حقير استفز مشاعري. ثم اقترب مني قائلًا:

- قول لي، ساعة ياسين بك فين؟

بهت من السؤال الذي لم أتوقعه نهائيًّا، ولكني أعملت عقلي بسرعة، ووجدت أن الإنكار في هذه النقطة بالذات لن يفيدني نهائيًّا فهممت أن أجيب، ولكن قاطعني دخول سكرتيرته قائلةً:

- قاسم بك، فيه واحد بيقول: إنه من الداخلية عايز يقابل حضرتك.

قال مستنكرًا:

- من الداخلية؟ عايزني أنا؟

- أيوه يا أفندم، هو سأل الأول على أسعد بك مندور مالقاهوش، فطلب يقابل حضرتك.

- طيب خليه يتفضل.

دخل الرجل وهو يرتدي بدلةً رماديةً وربطة عنق كحلية، وتوجه إلى أحمد قاسم مصافحًا، وقدم له الكارت الخاص به وقال:

– أحمد بك معلش أنا جاي من غير موعد، وبتكليف خاص من وزير الداخلية، وتقدر تقول كمان إني هنا مش بصفة رسمية.

قال له قاسم وقد بدا عليه عدم الفهم:

– اتفضل حضرتك؛ تحت أمرك.

نظر الرجل إلي بعد أن جلس أمامي وحياني بإشارة من رأسه ثم أمعن النظر قليلًا، وعاد ببصره إلى أحمد قاسم مستفسرًا؛ وكأنه يقول له "من هذا؟"... فهم أحمد قاسم إشارته وقال:

– أقدم لك الأستاذ إبراهيم رئيس قسم التحاليل البيولوجية في المركز، وخطيب بنت ياسين بك رئيس مجلس الإدارة.

– آه، أهلًا وسهلًا، يعني العملية في بيتها. بس الحقيقة أرجو أن الحديث اللي حايدور بيننا يبقى في طي الكتمان وما فيش داعي للشوشرة.

أقلقت كلمات الرجل أحمد قاسم، وبدا عليه أنه يفكر في كيفية التخلص مني، وفي نفس الوقت لا يريدني أن أغادر بعد أن فتح معي الحديث عن "الساعة"، وعلى الجانب الآخر كدت أنتهز الفرصة للاستئذان، ولكن في نفس الوقت دفعني الفضول إلى سماع الحديث الهام الذي جاء من أجله مبعوث وزارة الداخلية، وبتكليف من وزير الداخلية شخصيًّا.

بدأ الرجل حديثه قائلًا:

– فيه معلومات، وصلت لنا إن التقرير الطبي عن حالة ياسين بك عبد القادر فيه شوية غموض؛ أقلقت الحكومة خصوصًا لو المعلومات دي وصلت للصحف بشكلها الحالي...

وحضرتك سيد العارفين إن ياسين بك عبد القادر مش أي حد؛ مش بس لأنه عضو مجلس شعب وعضو بارز في قيادة الحزب، إنما كمان ذو شخصية عامة وفيه ناس كثير بتعتبره بطل قومي لمساهماته الطبية والبحثية على مستوى القطر كله.

– مفهوم طبعًا، إنما وضع الغيبوبة ده كان متوقع من مده، وما فيهوش أي غموض.

– التقرير الطبي بيقول إن الأعراض اللي دخل بيها للمستشفى كانت ترجح إنه مرض في الدم، لكنهم اتأكدوا إنه مش سرطان في الدم ولا إيدز ولا أي مرض من أمراض الدم المعروفة. مجرد ميكروب في الدم مش معروف نوعه أدى لنقص المناعة بشكل حاد، واختلال في باقي وظائف الجسم، واتدهورت حالته بشكل سريع جدًّا.

قاطعه أحمد قاسم قائلًا:

– ياسين بك مش صغير وطبيعي إن أي مرض شديد يدهور حالته بسرعة...

لم يلتفت الرجل لمحلوظته وقال:

– التقرير أشار بشكل غير مباشر إن حالته ممكن تكون ناتجة عن تسمم في الدم لسبب مجهول.

زم قاسم بين حاجبيه وقال:

– طيب؟

– تقرير زي ده من أكبر أخصائين في البلد ومعاهم فريق طبي جاي مخصوص من سويسرا، ويذكر ذكر عابر لكلمة تسمم في الدم بسبب غير معروف أو مجهول... كلام بيفتح المجال لتكهنات كثير جدًّا، دي مش مجرد أمراض شيخوخة. خضرتك فاهمني؟

هز أحمد قاسم رأسه وقال:

– أنا الحقيقة مش عارف أقول لحضرتك إيه.

– كمان وصلت لنا أخبار أن فيه خلافات بين مجلس الإدارة والسيدة زوجته؛ ابتدت تثير غبار مش مريح في الأوساط الاجتماعية.

كنت قد أشبعت فضولي بمعرفة سبب المقابلة فانتهزتها فرصةً للخروج خاصةً أن ساعة ياسين عبد القادر في جيبي، فقلت:

– طيب يا قاسم بك، أنا مضطر أستأذن، أكيد وصل لهناء دلوقت أخبار عن دخول ياسين بك في غيبوبة عميقة ولازم أكون جنبها، وكمان لو وصلها الكلام الخطير ده مش عارف رد فعلها يكون إيه؛ خصوصًا إن الباشا بيؤكد ضرورة التعامل بهدوء في الوقت الحالي.

قال الرجل:

– تمام يا أستاذ إبراهيم؛ أعتقد إن رسالتي وصلت لحضرتك لحد ما نحقق في الموضوع، ونوصل للحقيقة...

استدرت بعد مصافحتهما وأنا لا أقوى على النظر لوجه أحمد قاسم خوفًا أن تفلت مني ضحكة عالية وأنا أتسلل من بين أصابعه رغم أنفه.

***

تقابلت أنا وهناء في الكافيه المعتاد؛ فلم يكن هنالك ما يدعو للتخفي، فقد فشلنا في معرفة من يراقبنا وكيف، فهم يتبعون أساليب محترفة تفوق قدراتنا... قصصت على هناء ما حدث بالتفصيل، فلم يكن ممكنًا أن أخفي عنها حالة والدها الصحية، على الأقل سأستطيع أن أنقلها لها بشكل هادئ... لم أمهلها حتى تستسلم لعواطفها وقلت بشكل حازم:

– أعتقد والدك كلفنا بمهمة، وعلى الأقل نكون قد المسؤولية، ونحقق له آخر أمنية. وبأفكرك إنه ذكر إننا في سباق مع الزمن، إحنا مش عارفين لا قدر الله لو حصل حاجة؛ إيه اللي حايحصل قبل ما نكون وصلنا لسره.

بدأت تتماسك وقالت:

– طيب وريني الورقة اللي صورتها، لقيت فيها إيه؟

– ما لحقتش حتى ألمحها، أهه. إنما الأول اتفضلي الساعة، ومن رأيي ترجعيها لإيد باباك فورًا.

– تفتكر من المفروض نطمس معالم الشكل اللي مكان زرار الساعة؟

– ما تقلقيش الموضوع مش محتاج.

– إنت مش بتقول الكمبيوتر في إيدهم، ومش صعب قوي مع وجود محترفين إنهم يفكوا كلمة السر.

– لأ؛ هي مش سهلة قوي كده، إنما حتى لو فكوها حيلاقوا سكة سفر ثانية خالص.

– يعني إيه؟

– يعني؛ في آخر مرة فتحت فيها الكمبيوتر مسحت الأبيات المكتوبة وأبدعت شعر ثاني خالص من عندي ما يوصلش لحاجة أبدًا.

– يا ابن الذين. طيب ورينا صورت إيه.

أخرجت الورقة ونظرنا إليها سويًّا.

***

# (4)

ماذا لو لم يكتشف الإنسان قوانين علم الهندسة، سواء كعلم صريح أو معرفة ضمنية؟ لو تخيلنا ذلك لحظةً واحدةً فإن كل المدنية التي نراها من حولنا تختفي تمامًا، ويصبح عالم القرن الواحد والعشرين تمامًا مثل عالم الإنسان الأول... بل ويستمر الحال على ما هو عليه إلى يوم الدين... هل تتخيل عالمًا يكون فيه بناء خيمة من قماش ضربًا من المستحيل وأمرًا بعيد المنال؟

وإذا سألت طالبًا في كلية الهندسة، بغض النظر عن تخصصه، ما هو أول ما يتعلمه في الكلية؟ لأجابك "علم الأستاتيكا" أو علم الأجسام في حالة السكون. وأول فصل في علم السكون لا بد وأن يتحدث عن الاتزان (Equilibrium)...

والخلاصة؛ فإنه بدون الاتزان لما كانت هذه الدنيا التي نعرفها. وبالتعريف البسيط عندما تكون محصلة كل القوى التي تؤثر على جسم ما تساوي صفرًا؛ فإن الجسم يكون في حالة اتزان.

وشئنا أم أبينا فإننا نعيش في عالم متزن. فالاتزان مقترن بالحياة نفسها، ومنذ بدء الخليقة وحتى يرث الله الأرض وما عليها؛ سيبقى

العالم في حالة اتزان، سواء سيطرت عليه قوة واحدة أو عدة قوى يجب أن يبقى متزنًا.

فلتنظر للموضوع كما تريد، ولتحسبها كما تشاء، ولكن في اللحظة التي سيفقد فيها العالم الاتزان؛ ستكون هي لحظة النهاية، وعلامةً من علامات الساعة! ولكن؛ فكرة الاتزان لم تقف عند مستوى التعريف البسيط، فالموضوع الأهم هو حالة "استقرار الاتزان" (Stability of Equilibrium)؛ وهي التي تجعل الأمر يختلط علينا فيما إذا كان الموضوع متزنًا من عدمه.

ولتبسيط الأمر تخيل منضدة عليها طبق مقعر، وأتيت بكرة "بينج بونج"، ووضعتها داخل الطبق، ومهما حاولت تحريك الكرة في أي اتجاه تعود مرةً أخرى، ولو بعد زمن، فتستقر في منتصف الطبق، وهنا تقول أن الكرة في حالة اتزان "مستقر".

أما لو قلبت الطبق، ووضعت الكرة فوقه؛ فإنك تحتاج لمجهود لتثبتها ولو نجحدمت فإن أي حركة بسيطه تجعل الكرة تتحرك وتسقط بعيدًا، وهنا نقول أن الكرة في حالة اتزان "غير مستقر"...

وليس فقط عالم الأجسام الصلبة والأشياء، فإن علم الاقتصاد الحديث كما نعرفه الآن قائم تمامًا على فكرة الاتزان واستقراره. تلك الفكرة العبقرية التي طرحها آدم سميث في كتابه الشهير "ثروة الأمم"،

ودافع فيها بقوة عن السوق الحر الذي يقوم بخلق اتزانه بنفسه؛ وكأن هنالك "يد خفية" تضبط إيقاعه...

فالإنسان بطبيعته يسعى للربح؛ فيقوم بإنتاج السلع التي يحتاجها مجتمعه، وطالما كان على السلعة طلب أكثر فإن سعر بيعها يزداد ويزداد ربح صانعها، مما يغري صناعًا آخرين بإنتاجها...

ولكن عندما يكثر العرض منها ويفوق الطلب عليها تبدأ أسعارها في الانخفاض، ونقل ربحية صانعها إلى المستوى الذي لا يغري آخرين بصنعها، ونطرد بعضًا من الصناع الضعاف الذين لا يستطيعون المنافسة، فيقل إنتاجها، فتعود أسعارها للارتفاع مرةً أخرى؛ وهكذا في آلية محكمة حتى تصل إلى حالة الاتزان المستقر!

قلائل هم الذين يستطيعون تقدير حالة الاستقرار في الاتزان، وأقل منهم من يستطيعوا تغيير هذه الحالة... وسواء اختلفت معهم أو اتفقت فإنك لا تملك إلا أن ترفع لهم القبعة.

***

قلت وأنا أقدم الورقة لهناء:

- والدك بيتفنن في أساليب الكتابة السرية، وأدي طريقة عبقرية قديمة اسمها "النقطة الميكروسكوبية"...

نظرت هناء إلى الورقة وقالت بسرعة:

– دي رسمة مرسومة بطريقة الخداع البصري، يعني صورتين في شكل واحد؛ بس ما تقدرش تشوف الصورتين مع بعض.

– أنا مش شايف غير اثنين واقفين جنب بعض، وممكن لبسهم يكون لبسي راهبات أو حاجة شبيهة.

– بص كويس؛ الراهبتين بلبسهم مرسومين بطريقة بتشكل وجه إنسان...

– وجه إنسان؟! فين ده؟

– طيب ابعد شوية، وحاول تشوف الصورة من بعيد وجه الراهبتين عبارة عن عينين وأدي مناخيره اللي هو جزء من لبس الراهبة اللي على شمالك، وأدي دقنه عند وسطهم تقريبًا.

–أيوه فعلًا، دي صورة مزدوجة!

– بالضبط.

– إنما شفتيها إزاي بالسرعة دي.

– علشان عيني مدربة على كده، زي ما عين سعادتك مدربة على تحليل العينات. كل واحد وعلامه يا أستاذ.

– طيب، أدي الراهبتين وأدي الوجه واضح دلوقت... هه، مين ده بقى؟

– الحقيقة مش عارفة. والمشكلة مش بس ده مين، ومين اللي راسمها كمان.

– شوفي هو بيقول في البيت الثاني "في مسرحيته" يعني ده وجه كاتب مسرحي، وده اللي يهمنا الأول؛ لأن موضوع الرسام ده حاييجي في البيت الثالث.

– ما هو يا فالح من غير ما نعرف مين اللي رسمها حاتعرف منين مين ده خصوصًا إن شكله صعب قوي وعامل زي جمجمة الهيكل العظمي، لأنه لو ده كاتب مشهور أكيد في اسم اللوحة حايكون مذكور اسمه.

– طيب يا ستي نبقى في ملعبك، مبين اللي رسم؟

هزت رأسها بالنفي قائلةً:

– ما عنديش أي فكرة.

– – يا سلام؛ مش إنتِ الخبيرة هنا؟

– أيوه؛ بس إنت متخيل إني شفت كل لوحات التاريخ يعني؛ علشان أول ما أشوف صورة أقول لك دي بتاعة مين؟ ثم واضح إن دي جزء من لوحة، مش لوحة كاملة كمان.

– أكيد علشان يوضح اللي هو عايزه في نقطة ميكروسكوبية ما يزيدش قطرها عن 2 مليمتر.

– ودي عملها إزاي؟

– في طريقة الإخفاء باستخدام (Microdot)، ودي طريقة استخدمها الألمان في الحرب العالمية الثانية، تبقى الرسمة أو صفحة

الكلام بحجمها الطبيعي، وبعدين بيصغروها عشرات المرات لحد ما يبقى حجمها مليمتر تقريبًا، يعني بحجم النقطة...

وبعدين يحطوها محل النقطة في آخر جملة أو فقرة لكلام عادي جدًّا، وبعدين اللي بتوصله الرسالة بيرجع يكبرها بنفس الطريقة اللي عملناها، فتظهر الصفحة الأصلية...

إنما والدك تجاوز التكنيك ده كمان، وعملها محفورة حفر على زرار الساعة وما كفهوش كل ده حطها على شكل رسالة متشفرة كمان... الرجل ده مخبي إيه بالضبط في الآخر؟

- وفين الماكينات اللي بتعمل الكلام ده؟ عندكم في المعمل برضه؟

- لأ؛ دي ماكينات دقيقة ومتقدمة جدًّا، وعلى حد علمي مافيش منها في مصر والله أعلم.

- يعني عملها بره مصر؟

- في الأغلب.

- إحنا كده قدام حارة سد.

- استني، ممكن يكون مركزنا في إسبانيا عنده معدات دقيقة بالشكل ده... تفتكري يكون خلاهم عملوها هناك؟

- ليه لأ، على الأقل علشان ما يعرضش سره قدام أي حد... وفي الحالة دي ممكن تكون عندهم الصورة الأصلية اللي استخدمها في التصغير.

– بسيطة، أنا قعدت مدة في المركز ده، ولي زميلة هناك ممكن أسألها على الموضوع ده.

– زميلة؟ ودي بقى إسبانية ولا مصرية؟

– هو ده وقته؟!

– أنا بأتكلم جد.

– إسبانية يا ستي، إنما إيه عندها شعر في إيدها أطول من شعر ذراعي.

– هو ده يمنع؟!

– بقول لك إيه، ما فيش وقت للكلام ده، تخلي بالك أنا بقيت مطلوب حيًّا أو ميتًا.

***

ثار جميل الحسيني عندما أسر له ياسين عبد القادر بإنه استطاع الحصول على خمسة آلاف جنيه من بهاء جعفر، ولكن ياسين استطاع أن يمتص ثورته وقال:

– يا جميل، فكر بالعقل، إحنا غايتنا نبيلة وجات لنا الفرصة نحاربهم وبتمويل منهم كمان. إيه الغلط في كده؟

– ده أسلوب ميكيافللي؛ أنا ما أقبلوش، إذا ابتدينا بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة حانفضل طول عمرنا بنستخدم أي أسلوب مهما كان...

– يا رجل يا طيب، هو فيه جماعة في التاريخ كله وصلت لتكوين قوة من غير ما تلجأ لأسلوب ميكيافللي بشكل أو بآخر لحد ما تصلب طولها، ويشتد عودها. ويا سيدي ده حايفضل دين علي أنا شخصيًّا وحارده.

– لو كنت استنيت شوية، أنا عملت اتصالاتي بناس أعرفهم في وزارة الزراعة، وفيه وفد من شركة عالمية بتنافس ماس في نفس المجالات الزراعية على مستوى العالم، ونفسهم يتعاونوا معانا هنا من مدة، إنما مش لاقيين حد متحمس لهم...

ودول مستعدين يعملوا أي حاجة علشان ماس ما تتوغلش من خلال مصنع ليراس، خصوصًا إنهم قدروا يأخذوا شغلهم في أكثر من دولة قبل كده.

– واسمها إيه الشركة دي؟

– المؤسسة الشرقية... وتحت مظلتها شركات كثير من نوعية ليراس.

– يعني؛ عايز تحارب القطط بقطط معادية؟

– وإنت الصادق؛ همه مستعدين يدونا كلاب علشان يحاربوا القطط مش قطط زيهم.

– بس خلي بالك، وإن كنت متفق معاك إنها فكرة حلوة، إنما ده سلاح ذو حدين... تضمن منين إنهم ما يتفقوش علينا؟ ساعات الكبار

بيبقى ليهم حسابات ثانية، يقسموا الكيكة ويا دار ما دخلك شر، ونروح إحنا في الرجلين.

– مش المنطق بيقول إن عدو عدوي يبقى صديقي؟

– ده صحيح؛ إنما ده لو كنت متأكد إنهم أعداء بجد.

– أنا فاهم أنت تقصد إيه، إنما دورنا إننا نعرف إزاي نخليهم دايمًا في حالة عداء، وما يبقاش فيه فرصة إنهم يتقفوا علينا... وعمومًا أنا حاقابل مندوبهم الأسبوع الجاي، وعندي قناعة إني حاقدر أخذ منهم التمويل اللازم وبالكامل كمان، ومش حنبقى محتاجين لتمويل بهاء أفندي.

– عمومًا اعتبره عصفور في اليد، وزيادة الخير خيرين.

***

طالت التحقيقات الجميع بما فيهم أنا، ولكن بأسلوب متكتم للغاية، ولم تتجاوز الدائرة المحيطة بياسين عبد القادر...

كانت هناء تتعرض لضغط نفسي شديد، فوالدها في حكم الميت، ويؤكد الأطباء أن غيبوبته عميقة، ومن شبه المستحيل العودة منها، ومتى يحدث هذا؟ في الوقت الذي قرر فيه أن يعتذر لها عن معاملته لهما طوال الأعوام الماضية التي عاشت فيها معه بعد وفاة والدتها وارتباطه بزوجته الثانية.

لم يكن قاسيًا معها بمعنى الكلمة، ولكن معاملته لها كانت تتسم بالجفاء، وكأنها فرد ثانوي في المنزل؛ ليس له كيان يُذْكَر. وعلى الرغم من ذلك؛ لم تكن إنسانةً منطويةً أو معقدةً، بل كانت تقبل الوضع بهدوء وسماحة غريبين، أو هذا ما كانت تبدو عليه على الأقل...

ولكن حديثه الأخير معها، أو في مرحلة مرضه الأخيرة أفاق عندها مشاعر كانت تخفيها باقتدار عجيب، وكأنها مارد حبسته في قمقم.

فقد كانت تحبه بلا جدال، ولم تفكر يومًا أن تتمرد عليه، أو تطالب بحقها في ضرورة رؤية والدتها قبل وفاتها وهي في منفاها الاختياري في كفر سلطان، ولكنها الآن حزينة على الأيام التي ضاعت ولم تشبع فيها من حنانه الذي أحسته في أحاديثه الأخيرة...

بل خُيِّل إلي أنها كانت تتمنى أن يبقى كما هو معها حتى رمقه الأخير، وألا يطلق ذلك المارد الذي طالما خشيت أن تراه شاخصًا أمامها. كانت شخصيتها قريبةً من والدها إلى حد بعيد، صلبةً بدون شدة فيصعب كسرها، سهلة بدون لين فيصعب سحقها.

ربما لهذا السبب كانت تغفر له كل شيء، أما الآن وقد اعترف أنه ظلمها فقد اختلف الوضع، فهي إذن لم تكن طبيعته الخالصة، وإنما ظلم موجه تجاهها.

ولكنها على الرغم من ذلك ما زالت متماسكةً بشكل عجيب، وكأنها تؤجل انفجار مشاعرها حتى تنتهي من آخر مهمة كلفها بها، فأمام تحمل المسؤولية يهون كل شيء...

كل تلك العوامل -على حد تقديري- ساهمت في أن تتجاوز هناء مرحلة التحقيقات بثبات وهدوء؛ حتى أنها لم تشغل بالها بحقيقة الأمر، وهل فعلًا كان مرض ياسين عبد القادر بفعل فاعل أم لا...

فقد وضعت نصب عينيها أنه حذرها من عامل الوقت، وإنه إذا مات قبل أن تصل إلى سره الدفين فقد يضيع إلى الأبد من بين أصابعها، وهذا ما لم تكن ترضاه خليفة ياسين عبد القادر.

جاء صوتها عبر التليفون وهي تتحدث بلهجة آمرة:

- شوف بقه، إحنا حانتحرك في ثلاث اتجاهات:

أولًا؛ بما إننا بنبحث عن كاتب مسرحي، وفيه رسام رسم له صورة جوة لوحة من لوحاته، أكيد ده كاتب مسرحي كبير مش أي حد نكرة، على الأقل متهيألي كده، ولا إيه رأيك؟

- كلام منطقي.

- طيب نفتح الانترنت ونشوف تحت أشهر الكتاب المسرحيين، ونحاول نشوف لهم صور أو تماثيل، ودي سيادتك متهيألي ممكن تبتدي فيها فورًا.

- ماشي، بس أتمنى ما يكونش قبل الميلاد، لأن موضوع الصور والتماثيل ده مش من زمان قوي.

- إزاي يا أستاذ، إذا كان سقراط له تمثال من قبل الميلاد بـ400 سنة، عمومًا ده الاتجاه الأول، أما الاتجاه الثاني فهو إنك تتصل بصاحبتك

بتاعة إسبانيا؛ تشوف إذا كان الحفر ده اتعمل عندهم أو لو عندها أي فكرة ممكن يكون اتعمل فين.

– تمام، كلام جميل، بس خلي بالك لحد دلوقت كله علي أنا.

– صبرك بالله، من ناحيتي حاشوف كل أساتذتي وزملائي؛ جايز برضه تكون اللوحة دى مرت على أي حد فيهم.

– ده إيه التخطيط اللي ما يخرش المية ده؟

– شايف فيه حاجة تانية؛ ممكن نعملها؟

– والله لحد الآن دي تقريبًا كل الوسائل المتاحة، وعمومًا خلينا نبتدي، وأديني فتحت النت، وإنتِ بتتكلمي... وعلى فكرة ماتتوقعيش إنهم حايفضلوا ملهيين بالتحقيق عننا كثير، معندناش وقت كفاية.

– إبراهيم ماتجبش سيرة التحقيق دي معايا ثاني، مش عايزة أشتت أفكاري، خليني مركزة معاك، وأنا متفقة معاك إن الوقت مش في صالحنا.

***

لم يمض وقت طويل من بعد آخر لقاء بين ياسين عبد القادر وبهاء جعفر حتى طلب الأخير مقابلته.

قابله بابتسامته المعهودة قائلًا:

– إنت طلعت أخطر مما أتصور يا با شمهندس.

- يا ساتر، ليه كده؟

- بص يا ياسين، إنت فاهم طبعًا بأني ماسلفتكش الفلوس دي بشكل شخصي مني لك، دي فلوس الشركة، وأنا عرفت إزاي أقنعهم بنوايا جمعيتك... إنما لما يوصل لهم إنكم اتصلتم بشركة منافسة وأخذتم منها تمويل، الموضوع كده يأخذ بعد ثاني.

- بشركة منافسة إزاي؟

- لأ، إنكار وحاوريني يا كيكا، ده مش لايق على واحد بقدرات سيادتك، خلي اللعب على المكشوف... عايز توصل للي إنت عايزه حاوصلك لأكثر منه، إنما تفتكر إنك أذكى من الكل يبقى بتدق أول مسمار في نعش مستقبلك.

تردد ياسين قليلًا، ولكنه أدرك أن المناورة لن تفيد، فقد كان يدرك منذ البداية أن اتصالات جميل بالمؤسسة الشرقية لن تكون بعيدةً عن أعين شركة ماس، فهما تقريبًا الشركتان اللتان تحتكران لعبة التكنولوجيا الزراعية على مستوى العالم، وتحركات كل منهما في إحدى الدول النامية لن تخفى عن الآخر، فلماذا الإنكار؟ من الأفضل مهادنة بهاء جعفر في المرحلة الحالية وعدم إثارة حفيظته.

- لو كنت تقصد المؤسسة الشرقية، فدي كانت فكرة جميل الحسيني، إنما ما أضحكش عليك أنا برضه ما كنتش ضدها، إحنا

في النهاية جمعية خدمية، وغرضها مصلحة أهل الكفر، وما لناش في تنافساتكم. وكمان ما تنساش، إنك سلفتني نص اللي طلبته بس.

ارتاح بهاء للصراحة التي تكلم بها ياسين، فقال:

– بس يا حبيبي، أديبًّا، كان لازم تديني فكرة إنكم حاتعملوا كده، المواضيع دي لها أصول.

– اعذرني يا بهاء بك، إحنا برضه خبرتنا محدودة، ودي جمعية أهليه لا راحت ولا جت، وكل اللي محتاجينه شوية تمويل علشان نقف قدام التجار، ثم إن النواحي البيئية، إللي إنتم برضه مهتمين بيها من أهداف الجمعية.

ابتسم بهاء ابتسامةً لها مغزى عندما سمع تعليق "الاهتمام بالنواحي البيئية"، ولكنه تجاوز عنها قائلًا:

– شوف يا ياسين؛ أنا فاهمك كويس قوي، زي كف إيدي بالضبط، بغض النظر عن الجمعية بتاعتكم ونوايا أصحابكم، وبغض النظر عن الشعارات والأهداف النبيلة حاتلعب بطريقتي حنبقى حبايب وحافتحلك كل الأبواب المغلقة، وأخليك تعمل اللي إنت عايزه، حاتلعاب علي وقبل ما تبتدي تفكر حاقلب عليك الترابيزة.

– عايز توصل لإيه بالضبط يا بهاء بك؟

– تعجبني، فتح لي ودانك، وخلينا نلعب اللعبة على أصولها.

***

عبثًا كانت محاولة البحث عن جميع كتاب المسرح عبر التاريخ ومحاولة التفتيش عن صورة أو تمثال لكل واحد منهم، فالقائمة تضم العشرات، كما أن الصورة المحفورة على مفتاح الساعة غير واضحة المعالم، فهي أقرب للجمجمة منها إلى وجه إنسان؛ يمكن مطابقته بصورة حقيقية.

لذا قررت الاتصال بكاترينا في إسبانيا. كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا، وأنا لم أشعر بمرور الوقت رغم إني لم أتحرك من أمام الكمبيوتر في منزلي طوال الليل.

كانات مهمةً شاقةً، فالتحدث مع كاترينا بالإنجليزية يحتاج إلى مترجم، فهي تنطقه بلهجة إسبانية صرفة، ويصعب التعرف على الكلمات وهي تتحدث أمامك فما بالك من خلال التليفون.

كان من المحال أن أفعل ذلك، وأنا في غاية التعب وأحتاج للنوم ساعتين على الأقل، وإلا يصبح الحديث كأنه مشوار الطرشان.

لم أشعر كم مضى من الوقت قبل أن أصحو على صوت جرس التليفون، خرج صوتي بالكاد:

- ألو.

- هي الساعة كام دلوقت؟

- الساعة واحدة ونص الظهر.

– يا هناء أنا غمضت عيني الساعة عشرة الصبح.

– هه، ولقيت حاجة؟

– إحنا بندور على إبرة في كومة قش.

– أنا عارفة إن دي كانت صعبة، كلمت إسبانيا؟

– حأقوم أكلمها حالًا.

– هي اسمها إيه؟

– كاترينا.

– طيب قوم يا أخويا كلم كاترينا بتاعتك... بقول لك؛ متهيألي لازم تقدم على أجازه اليومين دول.

– كلمتهم امبارح وأخذت أسبوع، بس على اللّه نلحق نخلص من الشغلانة دي وإلا حايرفدوني على حق.

– أول ما تقفل معاها كلمني على طول... واتكلم من المحمول مش من تليفون البيت...

جاءني صوت عاملة السويتش من فرع المركز في إسبانيا:

– ألو، من فضلك ممكن أكلم كاترينا.

– أي قسم؟

– قسم التحاليل الزراعية.

- نقول لها مين؟

- مركز صيانة السيارات.

- ثانية واحدة.

ما هي إلا ثوان حتى جاءني صوت كاترينا:

- ألو، مين؟

- كاترينا، أنا إبراهيم من مصر، مش حأقدر أكلمك في تليفون المركز، عايزك في موضوع ضروري، مليني بسرعه رقم تليفونك المحمول.

- إبرا...

لم أدعها تكمل الاسم...

- كاترينا ما فيش داعي حد جنبك يعرف إني أنا اللي باكلمك، أرجوك، اديني رقم تليفونك بسرعة وأنا حافهمك على كل حاجة.

أملتني رقم التليفون، فقلت:

- قدامك قد إيه وتبقي بره المركز؟

- ثلاث ساعات تقريبًا.

- حاكلمك بعد ثلاث ساعات ونص بالضبط.

ترددت قليلًا بعد أن أقفلت الخط، إن علاقتي بكاترينا كانت جيدة خلال فترة وجودي في إسبانيا، بل كانت تقريبًا صديقي الوحيد هناك؛ حيث كنا نعمل في نفس المعمل لأكثر من ثلاثة شهور...

ولكن هل أستطيع أن أثق بها؟ وإلى أي مدى؟ يجب علي أن أفكر في حجة مقنعة لأفسر لها لماذا طلبت منها عدم التحدث في تليفون المركز، وما هو الموضوع المهم الذي تطلب كل هذه السرية... طلبت الرقم في الموعد المحدد:

– ألو، كاترينا.

– هاي إبراهيم، إزيك؟

– معلش يا كاترينا أنا أصلي كنت بأكلمك من تليفون المركز عندنا وأنا الحقيقة عايزك في موضوع شخصي لي أنا، وهنا الأوضاع بعد مرض مستر ياسين مش، سهلة قوي.

– آه؛ صحيح مستر ياسين أخباره إيه؟

– يعني الوضع الصحي مش قوي، هو في كوما دلوقت وعايش على الأجهزة.

– مسكين مستر ياسين، إحنا كلنا بنحبه هنا، إنما مين المسؤول عن المؤسسة بداله؟

– حاليًّا مستر مندور.

– أووه، الرجل ده أنا ما بستحملهوش.

– المهم، ربنا يشفي مستر ياسين. كاترينا، أقدر أطلب منك خدمة؟

– أكيد، إبراهيم.

– الحقيقة عندي أخ حايتجوز قريب، وكنت في مرة اتكلمت قدامه عن حفر صورة خطيبته على خاتم الجواز زي اللي عاملها مستر ياسين، عجبته الفكرة قوي وقلت إنك ممكن تساعديني في حاجة زي كده.

– الحقيقة مش فاهمة، أنا ممكن أساعدك في حاجة زي كده إزاي؟

– أصل مستر ياسين كان قال لي إنه عمل الحفر ده في إسبانيا.

– الحفر ده عبارة عن إيه بالضبط؟

– هو كان عنده صورة صغرها، وحفرها على خاتم عنده، ومش عارف هل عندكم الجهاز ده في المركز في إسبانيا ولا عملها في حتة ثانية؟

– آه، مايكروجريفنج (Micrograving)...

– بالضبط.

– أعتقد عندنا جهاز صغير في قسم التعبئة.

– قسم التعبئة؟

– أيوة، إلي بنعبي فيه المواد الفعالة الجديدة، وبيحفروا على العبوات البلاستيك معلومات كاملة عن الدواء في دائرة صغيرة جدًّا. بس دي ماكينة صغيرة قوي.

– يعني، صغيرة أو كبيرة، المهم أكيد هي دي اللي حفر بيها مستر ياسين الصورة.

– صورة إيه اللي كان حافرها؟

– أنا الحقيقة مش عارف لكن الفكرة عجبتني.

– بس تفتكر مستر ياسين استخدم الماكينه دي في حاجة شخصية كده؟

– أكيد، أمال أنا جبت المعلومة منين. كاترينا أرجوك الموضوع ده خليه بيني وبينك...

– أكيد يا إبراهيم، إحنا أصحاب.

– طيب يا ترى هل ممكن أستخدام الماكينة دي في حفر صورة خطيبة أخويا على الخاتم؟

– فنيًّا أعتقد ده ممكن، إنما حاتاخد موافقة على الموضوع ده إزاي؟

– طيب قبل ما أمشي في إجراءات طلب حاجة زي دي، أنا كنت عايز أتأكد إن الماكينة هي فعلًا اللي استخدمها مستر ياسين مش مجرد مصادفة.

– بسيطة دى ممكن أنا أسألك حد من الزملاء في القسم هناك.

– لأ، السؤال ده ممكن يثير، قصدي مش مناسب لأنه ممكن مستر ياسين عملها بشكل ودي كده من غير ما يعرف حد.

– طيب خليني أسأله بشكل غير مباشر.

– أرجوك فكري في طريقة يكون سؤالك مش واضح قوي.

– أوك، ما تقلقش.

– أنا متشكر قوي يا كاترينا إنك على استعداد لمساعدتي.

– أي وقت يا إبراهيم، اتصل بي في نفس الوقت بكره، أشوف إذا كنت قدرت أعمل حاجة...

***

أخذت الجمعية تنمو بشكل مضطرد، واستطاعت خلال فترة قصيرة أن تقوم بمعظم عمليات بيع المحصول لصالح مزراعي الكفر مقابل نسبة مئوية أُضِيفَت لخزينة الجمعية.

رشح جميل الحسيني ياسين عبد القادر لرئاسة مجلس الإدارة، ولم يجد صعوبة تُذْكَر في إجماع الأعضاء عليه، وأصبح هو نائبًا لرئيس مجلس الإدارة، ويتولى جميع العمليات التجارية من بيع وشراء، وترك لياسين عميلة التنظيم الإداري والتحدث باسم الجمعية...

وحرص على وضع لائحة مالية تكفل لياسين دخلًا ماديًّا ثابتًا بالإضافة لنسبة من دخل الجمعية لجميع أعضاء مجلس إدارتها حتى

يستطيعوا التفرغ لأعمالها. لم يكن جميل يحفل كثيرًا بالماديات؛ فقد كان سليل عائلة ميسورة الحال.

استمرت الأمور بشكل هادئ ومنتظم حتى جاء يوم دخل عليهم في مقر الجمعية كامل الأشرم صائحًا:

- المعدات وصلت.

قال جميل منفعلًا:

- وصلت للمصنع؟

- لأ؛ وصلت الميناء وفي طريقها للمصنع في بحر أيام.

- يبقى لازم نبتدي ننظم خطوتنا الجاية بسرعة.

قال ياسين:

- معاك حق؛ الموضوع مش حايستغرق أكثر من شهر بالكثير ويبتدوا يشتغلوا بجد.

- وأكيد ساعتها حايبتدوا يجمعوا كميات كبيرة من ورد النيل، وينتجوا كميات ضخمة من السم الهاري.

- وساعتها حيبقى صعب عليهم إخفاء الكميات الكبيرة عن العين.

قال كامل:

- وفتحوا باب التعيين لأكبر عدد من أهالي الكفر، والناس واجفة طوابير جدام المصنع...

قال جميل:

– ورتبت الرجالة بتاعتنا اللي عايزينهم يتعينوا هناك؟

– كلاتهم واجفين من النجمة... وأنا رايح أتمم عليهم.

ودعهم وانصرف، فالتفت جميل لياسين قائلًا:

– هه يا بطل، قربنا من الجد.

– لازم خطواتنا تكون محسوبة بالضبط وإلا حانقلب علينا الدنيا.

– ما تقلقش؛ أنا مرتب معارفي في الوزارة وحيقدموا مذكرة عاجلة مع أول إشارة مننا، وحايحركوا الداخلية بحيث ما يبقاش عندهم وقت يخفوا حاجة.

– بس تفتكر ما حدش في الوزارة يبلغ العمدة أو المأمور قبل ما يعملوا الكبسة دي؟

– فكرت في الوضوع ده برضه، وعلشان كده أكدت عليهم إن المذكرة توضح احتمالية تواطؤ السلطات في الكفر مع الشركة.

– كلام كويس... والدكتورة سماح قدرت تجيب نسخة من تقرير المستشفى السري؟

– وعدت إنه مش حايمر أسبوع إلا ويكون عندها نسخة منه.

– كده يبقى مش فاضل غير إشارة كامل لما يبقى عندهم مخزون كبير صعب عليهم إنهم يخفوه.

لم أتوقع سرعة الاتصال من كاترينا، جاءني صوتها متحمسًا...

– هاي، إبراهيم.

– هاي كاترينا.

– متهيأ لي ما اتأخرتش عليك؟

– هه، لقيتِ حاجة؟

– شوف، بالتأكيد موضوع الحفر اللي عمله مستر ياسين ما حصلش هنا في المركز، لأن الماكينة عندنا ما بتصغرش لدرجة قطر أقل من 2 مليمتر زي ما بتقول. إنما...

– إنما إيه؟

– المهندس المسؤول عن الماكينة عارف مستر ياسين عمل الحفر فين.

– كاترينا معنى كده إنك اتكلمتِ في الموضوع بوضوح.

– إطلاقًا، أنا كنت بسأل إذا كان ممكن أصغر صورة البوي فريند بتاعتي على الخاتم، قال لي ببساطة أنا أقدر أوديك لمكان يعمل لك الصورة دي، بس ده حايكلف كثير. مستر ياسين عمل صورة مصغرة قبل كده، ودفع فيها مبلغ كبير قوي.

– هايل، وفين المكان ده؟

– بس أخوك مستعد يدفع مبلغ كبير في الموضوع ده؟

– والله أعرف التكلفة، وأقول له وهو اللي يقرر.

– خلاص، تحب تأخذ تليفوناتهم، وتكلمهم، ولا تحب أنا أسأل لك؟

– مش عارف، إنتِ إيه رأيك؟

– طيب، اسمع أنا بكره مستأذنة بدري عندي شوية حاجات لازم أعملها، أنا حامر عليهم، وأسأل لك بنفسي، أحسن من التليفون، لأنه في الأغلب مش حايقولوا التكلفة في التليفون.

– أنا متشكر جدًّا يا كاترينا، حاتعبك معايا.

– إطلاقًا! المكان قريب قوي من طريقي للبيت، وكثير كنت بامر على فاترينة المعرض بتاعهم.

– معرض؟ هو مصنع ولا معرض؟

– همه بتوع مشغولات ذهبية وماسيه مشهورين قوي، وأكيد عندهم مصنع، بالإضافة لمعارضهم ومحلاتهم.

– آه فهمت، كده يبقى سهل تسأليهم براحة عن الحفر اللي عمله مستر ياسين، ممكن يعملوا خاطر لأنه أكيد كان زبونهم.

– أكيد، عمومًا حانشوف، وأكلمك بكره في نفس الميعاد...

ما إن أغلقت الخط حتى اتصلت بهناء...

– عندي أخبار كويسة، كاترينا عرفت بابا عمل الحفر فين وحاتمر عليهم بكره، وتجيب كل التفاصيل.

– هايل، عمومًا أنا كمان رايحة دلوقت مشوار؛ أتمنى ألاقي فيه معلومات تفيدنا...

– على فكرة يا هناء، ما كنتش عايز أقلقلك بالموضوع ده إنما لما جيت النهارده البيت متهيألي إن حد دخل شقتي النهارده، وفتش فيها... وواضح إنهم بعتوا حد محترف.

– يعني إيه؟

– البيت كان مترتب بعناية، وصعب حد يعرف إنه كان حد موجود، إنما أنا اكتشفت بالصدفة...

– إزاي؟

– إنتِ عارفة وسوستي وترتيبي لكل حاجة في مكانها بدقة شديدة، لقيت الكتب في مكتبي متحركة شوية عن مكانها المعتاد، وكمان ترتيب البدل في الدولاب.

– وكانوا بيدوروا على إيه؟

– احتمال كانوا بيدوروا على الساعة... وعمومًا ما تشغليش بالك. ونحاول نتحرك بسرعة أكثر.

بدأت هناء في رحلة بحثها بصديقتها هالة، كانت زميلتها في الكلية، ولكنها كانت الأولى على الدفعة؛ فتعينت معيدةً، وكان لها مرسم خاص بها، ومعها بعض الصديقات اللاتي يعشقن الفن التشكيلي، ويقمن بعمل معارض ويبعن لوحاتهن لمهندسي الديكور...

ذهبت لها هناء بدعوى إعادة كتاب فان جوخ الذي استعارته منها منذ مدة...

صاحت عند رؤيتها:

– أول مرة أشوف حد يستلف كتاب ويرجعه... أنا كنت مستعوضة ربنا فيه من الأول...

– يا سلام، شايفاني إيه؟

– يا بنتي دي عملية طبيعية تلقائية، ممكن ناخذ أي حاجة ونرجعها إلا الكتاب؛ بنعتبره تحصيل حاصل.

– أديني خيبت ظنك يا ستي.

– عمومًا أنا بأشكر جوخ لأنه خلاني أشوفك ثاني، إيه بقالي سنه ما سمعتش صوتك يا بنتي.

– أبدًا والله؛ مشاغل يا هاله، وبابا تعبان بقاله مدة في المستشفى.

– لأ، ألف سلامة عليه، وربنا يطمنك... بس كده إيه؛ جوازك حايتأخر؟

– آه طبعًا، أكيد.

– يا حبيبتي؛ انتوا بقالكم كثير مخطوبين.

– أهو ظروف بقه، ربنا يعمل اللي فيه الخير. بس المرسم عندك اتغير كثير عن آخر مرة زرتك فيها...

- طبعًا؛ بقى مبهدل وراسه محل رجليه.

- يعني مش عايزة أقول لك كده من الأول.

- ما هو البركة في زمليتنا الجديدة بيكاسو.

- بيكاسو؟

- أيوه، اسمها منى؛ إنما غاوية سيريالليزم، ومثلها الأعلى بيكاسو، وليل ونهار شغالة شخبطة...

- لأ؛ وأنا عارفة حساسيتك من السيريالليزم.

أخذا يتجاذبان أطراف الحديث الذي تحملته هناء على مضض وهي على أحر من الجمر لتريها الصورة، لعلها تجد عندها إجابةً، حتى حانت لها فرصة عند الحديث عن معرض جديد؛ تقوم هالة بالتحضير له، فقالت هناء:

- بأفكر حاليًّا في شوية أفكار عن رسومات ليها طبيعة مزدوجة.

- إزاى يعني؟

- عارفة الحاجات اللي كان بيوريهالنا الدكتور نشأت؟ حاجة زي الصوره دي كده... قلت ممكن يكون عندك شوية مراجع في الموضوع ده.

وقدمت لها الصورة، ولكن هاله لم يبد عليها إنها تعرفت عليها عند رؤيتها...

– وهزمت رأسها قائلةً:

– طيب هايل ما تعمل شوية أفكار، وممكن أعمل لك كورنر في المعرض خاص بك.

– طيب عندك حاجة ممكن أقراها في المجال ده؟

– الحقيقة لأ، إنما خليني أسألك، ممكن تسيبي لي نسخة منها، حاسأل لك برضه الزملاء في الكلية.

– ممكن تخليها معاك، أنا عندي منها نسخة.

دخلت عليهم أثناء الحديث منى زميلة هالة. وحسب وصف هناء لها كانت تشبه اللوحة السيريالية بملابسها الغريبة وشعرها المنكوش والسيجارة التي تدلت من شفتيها. قالت لهم بعدم اكتراث:

– هاي.

ردت هاله:

– هاي ورحمة الله وبركاته. أقدملك هناء زميلتي من أيام الكلية... منى بيكاسو...

– هاي، لسه هالة كانت بتحكيلي عنك.

– طبعًا قالت ما في الخمر.

– بالعكس.

– آه، إنتِ باين عليك مجاملة ومؤدبة مش زي صاحبتك اللي لسانها مسحوب منها...

هالة: إيه يا عم الخنفشاري؟!

منى: بالذمة مش منتهى الجهل إلغاء السيريالية من الفن، وبتسمي نفسها معيدة ومربية أجيال؟

هالة: والنبي أنا لازم أبلغ عنك أحمد رجب يتوصى بيك في نص كلمة...

وقعت عين منى على الصورة التي قدمتها هناء لهالة، فتوجهت نحوها وجذبتها بسرعة، تمعنت فيها ثم قالت:

– يعنى بتتريقي وانت ماسكة صورة منها. تشيزوفرينيا دي ولَّا إيه؟

هناء: هي دي لوحة سيريالية؟

منى: آه طبعًا، دي جزء من لوحة، مش لوحة كاملة، إنما مين اللي مصورها بالشكل الرديء ده؟

هناء: إنتِ عارفة اللوحة دي؟؟

منى: أيوه طبعًا؟

هالة: إنتِ بتصدقي الهبله دي؟ دى عايزة تطلعنا حمير وخلاص.

هناء: استني يا هالة، جايز مدموازيل منى تفيدنا.

هالة: يا بنتي دي خلخل

قالت هناء بحدة: أرجوك يا هالة، الموضوع ده يهمني قوي.

منى: طيب شوفي يا هالة، علشان طول لسانك دا أنا مش حاقوك حاجة.

هناء: أرجوك يا مدوازيل منى سيبيك منها، أنا مقدرة إنك ممكن تكوني بتفهمى في الموضوع فعلًا.

منى: ممكن أكون بأفهم؟ والله العظيم؟

هزت رأسها وألقت لهم الصورة، وتركتهم متوجهةً إلى حيث تركت لوحاتها. نظرت هناء إلى هالة شذرًا؛ معاتبةً لها، فقالت هالة:

- يا بنتي؛ إنت بتصدقي، طول عمرك هبلة كده.

- أيوه مصدقة، خليها تقول لنا اللي عندها.

ثم توجهت بالحديث إلى منى:

- صدقيني يا منى، احنا لسه ما نعرفش بعض، بس أنا مش ضد السيريالية بدليل إني عندي شوية أفكار، وكنت جاية أستشير هالة فيها.

منى: تستشيري مين؟

هناء: ما هو أنا مستوعبة دلوقت إني ممكن ألاقي اللي أنا عايزاه عندك.

منى: ده أكيد يا بنتي، إنما الأول الآنسه إلى هناك دي تعتذر.

هالة: أبوس القدم وأبدي الندم على...

منى: شايفة؟

هناء: إنتِ عارفاها أكيد، بتحب تهزر، حالاقي عندك صور من النوعية دي كثير؟

منى: ما فيش صورة رسمها "دالي" مش حاتكون مرت علي...

هناء: دالي؟! تقصدي "سلفادور دالي"؟

منى: إيه؟ هو إنتِ ما كنتيش عارفة إن دي جزء من لوحة "دالي"؟

هناء: الحقيقة لأ، عندك اللوحة كاملة؟

منى: لأ؛ مش عندي، إنما ممكن تلاقيها بسهولة. فيه على فكرة معرض لمجموعة كبيرة من لوحاته الأسبوع الجاي في مركز الفنون.

هناء: بس، أنا مستعجلة قوي، مش حاقدر أستنى الأسبوع الجاي.

هالة: يا سلام، إيه وجه الاستعجال الرهيب، ده؟

هناء: يعني ألحق أكون فكرة بسرعة في اللي ناوية أعمله.

منى: بس اشمعنى اللوحة دى بالذات، دالي له لوحات أشهر بكثير في فترة السيريالية.

هناء: فترة السيريالية؟

منى: ما هو"دالي" رسم لوحاته السيريالية كلها وراء بعض في فترة معينة من حياته.

هناء: طيب؛ واسمها إيه اللوحة دي؟

منى: لا، الحقيقية مش فاكرة اسم اللوحة، إنما عرفاها كويس.

هناء: طيب؛ وصورة مين دي اللي راسمها؟

منى: مش فاكرة.

هالة: والنبي تلاقيك مش فاكرة إذا كان "دالي" ولا شعبان عبد الرحيم.

***

حانت ساعة الصفر وأعطى كامل الأشرم الإشارة بأن الموقع جاهز للمداهمة مع وصف دقيق لأماكن التخزين.

وفي اليوم المحدد وصلت وحدة من الداخلية ومعها بعض الأطباء البيطريين والمهندسين الزراعيين من وزارة الزراعة ومعهم إذن بتفتيش المصنع.

استلم فرد الأمن الإذن، وقرأه وأبلغ الضابط إنه يجب أن يعرض الأمر على مدير المصنع قبل أن يفتح لهم البوابة، ولكن الضابط لم يمهله وهدده باقتحام البوابة بالقوة.

حاول العمدة، الذي أصر الضابط على اصطحابه معه هو وبعض الغفر، وعلى رأسهم شيخ الغفر، أن يهدئ من روعه، ويترك فرصةً لفرد الأمن لإبلاغ الإدارة محاولًا توضيح إن المنشأة بها رؤوس أموال أجنبية، ويقف وراءهم شخصيات هامة ولا داعي لإثارة حفيظة الجميع.

لكن الضابط أصر أنه في مهمة محددة، ويجب عليه دخول الموقع فورًا دون إبطاء للتحقيق في البلاغ المقدم للداخلية، ولم يمهل العمدة في الاسترسال؛ خاصةً إنه لاحظ إن زميل فرد الأمن الذي يخاطبه توجه بسرعة ناحية مبنى الإدارة، فخشي أن تفشل المهمة التي هو قادم من أجلها.

اضطر رجل الأمن تحت التهديد لفتح البوابة، فدخلت القوة وتوجهت مباشرةً إلى حيث أماكن التخزين كما وُصِفت لهم بدقة، وعندما حاول أفراد الأمن المسؤولين عن حماية المخزن التصدي لهم اضطر الضابط لأن يشهر سلاحه مهددًا. وفي تلك اللحظة وصل بهاء جعفر؛ فقال:

– ما فيش داعي يا حضرة الضابط، خير؟ طلبات حضرتك إيه؟

– معايا إذن بالتفتيش، عندنا إخبارية إن فيه مواد محظورة.

– ما فيش مشكلة بس حضرتك اللي حايدخل المخزن لازم بيكون متخصص، دي مواد مرت بمراحل تصنيع، والتعامل معاها ما يبقاش بعشوائية، وأكيد حضرتك ما ترضاش لينا الخسارة.

– الدكاترة ممكن يدخلوا ويأخذوا العينات المطلوبة.

– تمام، طيب معاهم لبس مناسب؟

أخرج الدكاترة الأقنعة الطبية والقفازات وارتـدوا المعاطف الخاصة. فقال جعفر:

– إنتم جاهزين تمام، عشرة على عشرة، اتفضلوا.

دخلت المجموعة ومعهم أحد الأفراد المتخصصين من المصنع. كان المخزن مليئًا بالبراميل، فطلب أحد الدكاترة فتح أحد البراميل، وبدأ في أخذ عينات في أوعية خاصة، ثم طلب فتح برميل ثانٍ وثالث حتى ملأ جميع أوعية الاختبار التي معه.

خرج الجميع وأشاروا للضابط إنهم أخذوا ما يكفيهم من العينات، فقال بهاء جعفر مخاطبًا الضابط:

– حضرتلك تحب تأخذ فكرة عن المصنع؟

– مافيش مانع نلقي نظرة سريعة، وتشرح لي إنتم بتعملوا هنا إيه بالضبط، بس إحنا مضطرين نحرز برميل من البراميل دي بالشمع الأحمر لحد ما تظهر نتيجة التحليل.

***

– هناء، عايز أشوفك دلوقت حالًا في المعمل بتاعي.

– كنت لسه حأكلمك أنا مسكت طرف خيط.

– أنا جبتلك الخيط كله.

– معقول: قول لي بسرعة؟

– ما ينفعشن أقول لازم تشوفي، كاترينا بعتت لي (E-mail) بالصورة إلى حفرها ياسين بك، ومعايا دلوقت على ديسكيت، ورايح المعمل أطبعها هناك لأن الطابعة عندي بايظة.

– بس احنا عندنا الصورة، المهم اسمها ومين إلى رسمها ومين اللي صورته مرسومة؟

– معايا الصورة كاملة اللي طلب ياسين بك حفر جزء منها يالَّا بسرعه ما تضيعيش وقت.

– أنا جاية حالا...

وصلت هناء بعدي بدقائق، وما إن وقعت عيناها على الصورة التي أخرجتها من طابعة الكمبيوتر حتى تغيرت معالم وجهها، ثم أغمضت عينيها وهي تهز رأسها:

– أنا شفت اللوحة دي قبل كده، بس مش عارفة فين.

– إنتِ اللوح اللي شفيتها في حياتك كثير حاولي تركزي.

– لأ، أنا شفتها عندنا.

– في البيت عندكم؟

– لأ، لو كانت في البيت كانت انطبعت في ذاكرتي بوضوح، وكنت عرفت أصلها وفصلها...

وضعت الصورة على المكتب بشكل رأسي وابتعدت بضعة أمتار وهي تضغط على أسنانها:

– أنا متأكدة إني شفتها.

– طيب حاساعدك شوية، اللوحة دي رسمها رسام مشهور اسمه سلفادور ضالي.

– اسمه "دالي" وهو ده طرف الخيط اللي أنا عرفته قبل ما أجيلك.

– ضالي، دالي؛ المهم الصورة كاملة معانا، وعرفنا مين اللي رسمها، مش فاضل غير إننا نعرف اسمها، وبالتأكيد حايكون محتوى اسم صاحب الوجه، وده أكيد حانلاقيه في موقع دالي على الانترنت.

– وكاترينا ما قالتكش اسم اللوحة؟

– ما كانتش عارفة اسمها، وأنا كمان ما أبدتش اهتمامى قوي، خصوصًا إن سؤالي كان إني عايز أعمل حفر على خاتم مش بادور على اللوحة اللي استخدمها ياسين بك، وده كان مجرد تطوع منها، وإنها تشرح لي كانت إيه الصورة وفيه الجزء اللي حفره على الساعة، علشان يحللوا المبلغ اللي طلبوه مني.

– بس أنا حاتجنن، أنا شفت اللوحة دي مرسومة فين؟

– عمومًا حاولي تروحي دلوقت وتركزي في الوضوع، وأنا حاقعد أشتغل في البيت، ومش حانام لحد ما ألاقيها. وخلي بالك احنا عرفنا كده جزء من النصف الثاني للغز.

– اللي هو إيه؟

– لو تفتكرى في البيت الثالث قال: "بقاموس ذلك الرسام" يعني باستخدام القاموس الإسباني.

– لأ، الحقيقة عرفنا كثير.

– ماتتريقيش، أهي أجزاء لغز بتركب مع بعضها.

***

في الخامسة صباحًا كنت قد وصلت للوحة التي رسمها دالي وكانت تحت عنوان:

The Slave Market with disappearing Bust of Voltaire

إذن فهو وجه "فولتير"...

***

# (5)

أجد معظم الناس تميل إلى فكرة التعميم (Generalization) وترتاح أكثر للأحكام العامة والتعريفات المطلقة قوي. ضعيف طيب، شرير، عادل، ظالم... المفاهيم المباشرة التي لا تحتاج لمناقشة أو تحليل، فالقوة يقابلها الضعف مفهوم عام أمام مفهوم عام...

ولا أدري لماذا لا أرتاح لذلك، وأشعر بالتوتر أمام المفاهيم العامة الجامعة في الأغلب ذلك يرجع لخلل ما لدي وليس لدى الآخرين، ولا أتخلص من هذا التوتر إلا إذا تفككت مثل هذه المعاني أمامي إلى أجزاء صغيرة وحجمت صفة الخصوصية والاستثناء...

فإذا كانت القوة مفهومًا مطلقًا، وكان الضعف هو المفهوم المطلق المعاكس، أو المضاد، فبما تفسر اللعبة الخالدة التي التي كنا نلعبها صغارًا؛ وهي أن تختار أحد ثلاثة أشياء، وتعبر عنها بقبضة الفائز، فالمقص يقطع الورقة والحجر يكسر المقص والورقة تحتوي الحجر.

لا يوجد شيء هو الأحق، بلقب الأقوى؛ كل منهم له قوته الخاصة التي تتغلب على ضعف خاص لدى الآخر. لا يوجد قوة مطلقة ولا ضعفي مطلق، فأرق الأشياء لا تُعْدَم القوة...

وهل يُوجَد ظاهريًّا ما هو أضعف من الورقة، ومع ذلك فهي تحتوي الحجر وتجرح يدك إذا ما مرت بسرعة خاطفة على حافتها، وتحتوى التاريخ كله على صفحتها، هُدِمَت ممالك وأنقذت اخرى. منتهي القوة

ثم يأتي المقص؛ فيركز على أضعف ما فيها ويحولها إلى قصاصات صغيرة لا تساوي شيئًا، وينسف عناصر قوتها نسفًا فنخال أن المقص هو الأقوى وهو الذي يحمل عناصر منتهى القوة؛ فلا يوجد ورقة تستعصي أمامه...

ولكن الحجر الأصم الذي لا يقوى على الورقة الرقيقة وتحتويه احتواءً تامًّا حتى لا يظهر منه أي بصيص؛ فيكسر المقص ويحوله إلى أشلاء مبعثرة؛ لا تضر ولا تنفع، وما كان ليستطيع ذلك إلا بفضل الصلابة التي اكتسبها المقص ولو أنه كان رقيقًا لينًا ما استطاع أن يفله.

فهل كلما زادت قوة الأشياء ظهر لها ما يطمع في عناصر قوتها؟ العلة هنا ليست في القوة ذاتها، وإنما في شكلها وأسلوبها وشخصيتها، وبشكلها الجديد أصبحت قويةً في أشياء، وضعيفة في أخرى.

عندما تشعر بأن قوتك تزداد بشكل أو بآخر بزيادة في المال أو النفوذ مثلًا؛ فتأكد أن هناك تغيرًا تلقائيًّا يحدث في الاتزان، يجب أن يظهر ما يقابله في مكان ما بشكل ما حتى تعود حالة الاتزان مرةً أخرى...

وخذ مثلًا: من الذي يسعى لإحراز لقب في رفع الأثقال؛ فيبدأ في اكتساب العضلات والبنيان القوي المتين، وشيئًا فشيئًا يصبح أثقل

وأبطأ، ويفقد تدريجيًّا عنصر السرعة. عندما تزداد قوتك فإنك تنتقل بدون أن تشعر لمساحة معركة مختلفة بقواعد جديدة وأعداء بأسلحة مختلفة، فقديما قال الشاعر:

**لكل شيء إذا مـا تـم نقصان**

**فلا يغر بطيب العيش إنسان**

إنه الاتزان مرةً أخرى يلعب لعبته الخفية حتى لا يكون هناك مطلق، وإنما كل ما هو نسبي. فحتى يتزن هذا الكون يجب أن يبقى كل شيء نسبيًّا ولا يبقى مطلق إلا الله.

***

– دلوقت تعالي نشوف السجع بتاع والدك تاني. البيت الأول عرفناه اللي بعده بقى.

– في مسرحيته تركت لك رسالةً مفتاحها مخفي بأسلوب (فنان)؛ يعني فيه مسرحية لفولتير فيها رسالة، ومفتاح الرسالة مخفي بأسلوب (فنان) مطلوب أولًا نلاقي الكتاب أو المسرحية، ودي في الأغلب حاتكون في مكتبة بابا، في البيت أو في المركز حاجة كده يعني.

– هي ناقصة توهان، بابا عنده أكتر من ألف كتاب في البيت.

– بس أكيد مش كلهم لفولتير.

- وممكن يكون له أكثر من كتاب.

- مضطرين نبتدي ندور ودي مهمتك.

- وسيادتك؟

- أنا اللي شاغلني المفتاح؟ بيقول أخفاه بأسلوب فنان؛ يقصد إيه بالفنان ده؟

- يمكن يقصد بطريقة فنية.

- كنت فاكر كده في الأول، لكن في البيت الثالث والرابع بيقول:

**حتى تعرفه اكتب لي رسالةً**

**بقاموس ذلك الرسام**

**فما رقم هاتفي بعده سبعة وزائدان**

**اسم ذلك الفنان**

خلي بالك إن والدك دقيق جدًّا في ألفاظه، وكلمة تعرفه تعود في الأغلب على نهاية البيت اللي قبله أسلوب، فنان وآخر كلمة في البيت الرابع برضه بيذكر فيها كلمة (فنان).

- معنى كده المطلوب نعرف مين هو الفنان ده وإيه أسلوبه.

- وعلشان نعرفه لازم نكتب رسالةً بالإسباني، والرسالة دي عبارة عن رقم تليفون ياسين بك بعده سبعة وزائد.

– يعني إيه؟ رقم تليفون بيبقى عبارة عن اسم واحد؟

– ما هو ده اللي مش قادر أستوعبه. إنما تفتكري زمان لما كنا بنلعب بالآلة الحاسبة؛ كان فيه أرقام لما تقلبيها يعني نبص على الشاشة بالمقلوب كانت تتقري زي الحروف، يعني مثلًا الرقم 710 لوقرتيها بالعكس هاتلاقيها بOIl بمعنى زيت.

– بس استنى ده إيه علاقته بالإسباني؟ لو هي مجرد قلب أرقام تدي منظر حروف؛ فده موضوع مش مرتبط بأي لغة.

– معاك حق دي كانت مجرد فكرة. عمومًا سيبيني أحاول أفكر فيها على بال ما تلاقي كتاب عمنا فولتير.

***

دخل جميل الحسيني، وقد انتفخت أوداجه وصاح:

– أنا مش مصدق يا ياسين؛ يعني إيه مالاقوش حاجة؟

– مش فاهم؟ مالقوش حاجة إزاي؟

– زي ما بقولك كده؛ التحاليل كلها أثبتت أن كل العينات إللي أخدوها عبارة عن سماد نظيف مية في المية مافيهوش غلطة... لا؛ والمصيبة إنه مليان بالمعادن والفيتامينات.

– يمكن أجهزة التحاليل اللي استخدموها مش متطورة كفاية لاكتشاف الفطر؟

– ما هي الزفت الأجهزة اللي اكتشفته قبل كده. إيه أُصِيبت بفقدان الذاكرة؟ اتخلفت عقليًّا؟

– طيب بس إهدا؛ خلينا نعرف نفكر.

– نفكر في إيه كل حاجة باظت.

طيب يمكن العينات اتغيرت في الطريق للمعمل؟

– مستحيل؛ أنا واثق أن العينات تحت عينين الناس بتوعنا لحد ما اتحطت في أنابيب الاختبار واتحللت.

– ممكن تكون اتغيرت بعد كده، إنت قلت التحاليل بتاخد أيام علشان يقدروا يتعرفوا على الجراثيم والبكتيريا وبيعملولها مزرعة والكلام ده...

– أنا واثق زي مانا شايفك قدامي دلوقت أن استحالة يكون ده حصل.

– أمال تفسر بإيه اللي حصل؟

– أكيد البراميل دي كانت خدعة، وكانوا مخزنين الفطر في حتة تانية...

– يا راجل يا طيب؛ ده إنت بنفسك اللي خليت كامل يجيبلك العينات الأولانية من نفس البراميل...

– ما هو ده اللي هايخليني أتجنن.

– جميل إنت واثق في كامل؟

– إنت بتقول إيه؟ انسى الثوابت دي كلها، أنا لا يمكن أشك في الناس بتوعي أبدًا؛ أراهن عليهم بعمري.

دخل عليهم كامل الأشرم وهو في قمة الانفعال.

– جميل؛ الشركة سرحت كل العمال اللي معانا في الجمعية.

– بتقول إيه؟ طيب وإنت؟

– أنا أول واحد فيهم.

– يعني إيه؟ كل اللي عملناه في الشهور دي كلها راح هدر، ومش هانعرف حتى إيه اللي بيدور جواهم.

ياسين: وبرروا القرار ده بإيه يا كامل؟

كامل: وهما محتاجين تبرير يا بشمهندس؟! المصيبة العمدة مهيج الدنيا إننا السبب في زعل الشركة، وإنهم بيهددوا ببيع الأرض والمصنع، وإنهم يسيبوا البلد وبيوت الناس حاتتخرب.

جميل: يا سلام؛ طيب يبقى عملوا طيب، ويغوروا في داهية.

ياسين: استنى بس يا جميل، طيب وها يشتغلوا إزاي من غير العمال دي كلها؟

كامل: كانوا مجهزين عمال من البلاد اللي حدانا.

ياسين: دي عملية مترتبة يعني.

جميل: المشكلة إننا حتى لو قدرنا نعرف هما شايلين الفطر فين حانقدر نجيبه الداخلية تاني إزاي؟ احنا بقينا عاملين زي الراعي الكداب.

ياسين: يبقى مافيش غير إني أقبل الشغل اللي عرضه على بهاء جعفر علشان يبقى لينا عين جواهم.

جميل: بطل بقى يا ياسين. إنت ساذج ولا إيه؟ إنت فاكر إنه ممكن يثق فيك بعد كده؟ إنت مش سامع كامل بيقول كل الناس اللي في الجمعية. إنت مش برضه رئيس مجلس الإدارة؟

ياسين: المشكلة دلوقت؛ هما ممكن يكونوا بيخزنوا الفطريات فين؟

كامل: في البراميل.

جميل: تاني نقول ثور؛ يقولوا احلبوه.

كامل: وحياتك يا جميل هي ما خرجتش عن البراميل، المصنع كله مافيش حتة تانية يتخزن فيها.

جميل: يا ابني؟

ياسين: استنى بس يا جميل؛ كمل يا كامل.

كامل: ممكن يكون فيه براميل مظبوطة وبراميل تانية.

جميل: وهما كانوا عارفين اللجنة هاتفتش أنهي برميل؟ اللي عرفته إنهم جابوا عينات من أكتر من خمسين برميل، ومن أكتر من ناحية من المخزن، ومن غير ما حد يقول لهم خدوا من هنا ولا من هنا.

كامل: وإيش دراك إن البراميل ماتكونش موشة.

ياسين: موشة؟ يعني إيه؟

جميل: زي تجار الفاكهة والخضار لما بيعملوا يحطوا الفا كهة السليمة على الوش ومن تحت المفعصة...

ياسين: تقصد إنهم مغطيين بالسماد والفطريات تحتها؟

كامل: وإنت عارف إن العينات اللي أنا جبتها قبل كده ما تفرقش كتير عن السماد.

جميل: فكرة، ليه لأ، تتحط في قلب السماد، والسماد رطب يعني مصدر ماء وغذاء.

ياسين: طيب والهواء؟

جميل: ممكن جدًّا تكون الفطريات دي بتعيش في وسط خالي من الهواء، لا هوائية يعني، وممكن كمان تكون بتستخرج الهواء من الماء زي الفطريات اللي بتنمو تحت المية، وممكن يكونوا مخرمين البراميل خروم صغيرة رفيعة أو أي حاجة مش عارف بالظبط.

ياسين: يبقى نطلب اللجنة وتاخذ، برميل على بعضه عينة.

جميل: ولو نظريتنا طلعت غلط اتأكد إنهم هايحبسونا المرة دي، وكمان شبه مستحيل أقدر أحرك القوة دي تاني بسهولة.

كامل: يبقى مافيش غير حل واحد.

نظرا إليه بلهفة من يتعلق بقشة.

كامل: نسرق برميل!!!

***

كان اللغز يبدو مستحيل الحل، نستخدم القاموس الإسباني ونكتب به أرقام تليفون فيكون اسم فنان؟ كيف هذا؟ مهلًا؛ هل يقصد معنى الأرقام بالإسباني؟ أونو دوس تريس... فلنجرب رقم تليفون ياسين بك هو: (8376303)، ونضيف بعده سبعة وزائدان؛ فيصبح (++83763037)...

ولو ترجمنا كل رقم لاسمه بالإسباني ينتج عندنا اسم مكون من أكتر من اثنين وثلاثين حرفًا، ولا يمكن أن يكون اسم شخص، وحتى لو أخدنا أول حرف من اسم كل رقم ينتج هذا الاسم (ا ت س س ت ز ت س)؟ اسم لا معنى له، ولو كتبناه بالعكس أيضًا فلا معنى له.

وبينما أنا مستغرق في أفكاري رن جرس تليفوني، كانت المتحدثة هي هناء...

- إبراهيم وجدتها.

- إيه.

- الكتاب. كتاب واحد بس، في مكتبة بابا عبارة عن مجموعة مسرحيات لفولتير:

(The Works Of Voltaire – Dramas Vol. XVI)

– إنتِ متأكدة إنه الكتاب الوحيد؟

– مية في المية؛ كنت بقرأ اسم كل كتاب ومؤلفه بقالي أكتر من سبع ساعات لما عيني اتمققت.

– كلام كويس؛ سيبي الكتاب مكانه ماتحتركيهوش مش لازم حد يحس إن فيه كتاب في إيدينا.

– تقصد، مين يعني؟

– أولهم مدام سهير.

– تنت، سهير؛ ما بتخشش مكتبة بابا خالص.

– معلش؛ اسمعي كلامي سيبيه، واحفظي مكانه؛ لسه الفتاح مش معانا، ومن غير المفتاح الكتاب مالوش معنى.

– طيب أوكي، إنت عملت إيه في الباقي؟

شرحت لها ما أفعله، وما وصلت إليه، فقالت:

– خد بالك إنه بيقول اكتب لي رسالةً؛ يعني رقم بابا اكتبه في رسالة لكن بالإسباني.

– طيب مانا بحاول أكتبه على شكل حروف.

– إنت بتقول بابا دقيق في كل كلمة، بيقول رسالة مش مجرد كتابة أرقام مترجمة.

– إنتِ بتصعبيها أكتر.

– مش بصعبها ولا حاجة، أنا مش عايزاك تغفل أي نقطة.

– طيب خليني أفكر فيها تاني، وحاولى إنتِ كمان تفكري معايا.

– يعني هو اللي يخلص شغله أسرع ياخد شغل إضافي؟

– هي دي الدنيا يا حياتي، إنما قولي لي افتكرتِ شفتِ اللوحة فين؟

– نهائي؛ كإنها اتمسحت بأستيكه.

– على خيرة الله.

– أنا لازم أنام دلوقت، بكرة لازم أروح المستشفى بدري، الدكتور بتاع بابا طلب يشوفني، وبعد كده أعدي أجيب هدية لابن نجوى، عيد ميلادو بكره.

– وده وقته؟

– أنا مجرد أعدي عليه الهدية، دي أعز صاحبة عندي، إنت عارف؛ خصوصًا إني وعدته بموبيل لو جاب مجموع كويس في الابتدائية.

– إيه ده؟ هو ابن نجوى كبير كده؟

– إنت مش عارف إنها اتجوزت وهي عندها 16 سنة؟

– ده على كده عنستِ.

– صحيح الملافظ سعد ياعبعال، ثم إنه قول لنفسك، ثم إن نجوى أكبر مني بسنتين.

– طيب خلاص؛ لما تخلصي المستشفى طمنيني على الأخبار.

***

لم تكن محاولة سرقة البرميل سوى كارثة محققة كلفت الجمعية حياة ثلاثة من رجالها برصاص رجال أمن الشركة، وعلى رأسهم كامل الأشرم الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى وهو يوصى جميل الحسيني على زوجته وابنه.

جُنَّ جنون جميل الحسيني، وشن حملة شعواء على الشركة، ولم يترك جهةً حكوميةً أو غير حكومية إلا ولجأ إليها بما يحمله من مستندات، ولكن عبثًا؛ لم يلتفت إليه أحد، وقُيِّدَت حادثة مقتل الثلاثة على أنها حادثة سرقة واضحة...

انتهز بهاء جعفر الفرصة من ناحيته وأثار حفيظة كبار رجال الكفر على الجمعية وعلى رأسهم العمدة وأعوانه، وقرروا في مجلس جمع حكماء الكفر حل الجمعية، واعتبار أعضاء مجلس إدارتها من غير المرغوب فيهم.

حاولت المجموعة التصدي للهجمة الشرسة، ولكن أهل الكفر أو معظمهم على الأقل ممن كانوا يؤثرون السلام والحياة الآمنة المستقرة تجاوبوا مع العمدة، ولفظوا المجموعة وقرروا طردهم خارج البلدة؛ مما اضطرهم إلى الخروج إلى القرى المجاورة التي يعرفون فيها أصدقاء، أو لهم فيها أقارب...

واختار جميل وياسين اللجوء إلى قرية "الطيبة" المجاورة لهم، حيث كانت المؤسسة الشرقية العدو اللدود لليراس؛ وقد بدأت نشاطها هناك على شكل تكوين جمعية أهلية من أهالي القرية، وتحت دعم مادي وفني من المؤسسة للقيام بنشاط شبيه بجمعية كفر سلطان؛ التي أسسها جميل الحسيني وياسين عبد القادر...

كانت الدكتورة سماح قد قررت الخروج من المجموعة المنبوذة إلى قرية الطيبة بحجة أنها ترغب في العيش عند خالها وزوجته؛ الذين تربت في بيتهم وهي صغيرة رغم المعاناة الشديدة التي لاقتها من والدها شيخ بلد كفر سلطان ولو لا إنه كان يعمل حسابًا خاصًّا لخالها لمنعها بالقوة.

كان غرضها الأساسي توفير مكان محترم تلجأ إليه المجموعة المنبوذة، وخاصةً ياسين وجميل؛ فهما الوحيدان اللذان لم يكن لهما أي صلة قرابة بأهالي الطيبة، وقد كان لخالها مزارعه ملحقة بمنزله؛ بها بيت قد يستخدمه كمخزن، فاستطاعت إقناعه بأن يسكنا به خاصةً أنه تعاطف معهما بعد أن صدق قضيتهم.

كانت صادقةً هي الأخرى في اقتناعها بالقضية التي من أجلها طُرِدُوا من بلدتهم، ولكن ما كانت لتقدم على تلك الخطوة إلا من أجل الحب الذي بدأ يتحرك في قلبها تجاه ياسين عبد القادر؛ الذي لم يكن بدوره غافلًا عن مشاعرها تجاهه...

ولم تمض بضعة أسابيع حتى تقدم لخطبتها رغم معارضة جميل الذي اعتبر أنه أساء اختيار التوقيت المناسب وهم في أمس الحاجة لعدم تشتيت أذهانهم، والتركيز فيما هم فاعلون في منفاهم الجديد...

ولكن ياسين لم يُعْدَم الحيلة في إقناعه بأن تلك الخطوة شديدة الأهمية لإضفاء الشرعية على بقائهم في بيت الرجل والاحتماء بقوته في القرية؛ مما يمثل نقطة انطلاق جديدة لإعادة تجميع صفوفهم، ومحاولة حل القضية التي ازدادت تعقيدًا...

لم يكن ياسين عبد القادر يقف طويلًا عند سرد تلك المرحلة من قصته، فقد كانت تذكره بفترة شديدة المرارة...

***

اتصلت بي هناء في السابعة مساءً تقريبًا...

- إبراهيم؛ والنبي حبيبتك مزنوقة.

- إيه؟ خير؟

- إنت عارف إن معلوماتي عن الالكترونيات زي معلوماتك عن اللغة الصيني بالظبط.

- بوظتي إيه تاني؟

- أبدًا؛ إنت عارف إن ابن نجوى كان منتظر الموبيل اللي جيبتهوله بفارغ الصبر علشان يقدر بيبعت رسايل لأصحابه.

- طيب؟

- المشكلة إنه حاول يكتب رسالة بتطلع له حاجات غريبة.

- يعني إيه حاجات غريبة؟

يعني مثلًا بيحاول يكتب حرف (I) بيدوس على زرار (ghi) ثلاث مرات علشان يجيب حرف (I) بيطلع على الشاشة (Gig)...

- يمكن بيدوس بشويش خليه يدوس، ثلاث، مرات بسرعة.

- لما أنا عملت كده بنفسي طلع نفس الكلام.

- طيب حاولي تدوسي بسرعة شوية.

- أهه. برضة نفس الحكاية.

- طيب جربي حرف تاني.

- والله بدوس على زرار (jkl) مرتين علشان أجيب حرف (k) بيطلع (li).

- طيب دوسي عليه مرة واحدة.

- بيطلع (K) مش المفروض يطلع (j)؟

- أهه، فهمت. التليفون أكيد على (Dictionary Mode).

- يعني إيه باقي؟

- بصي ياستي اخرجي بره.

– بره فين؟

– أقصد اخرجي برة الـ( Mode) كإنك لسة فاتحه التليفون.

– أوكي.

– دوسي على (Menu) واختاري (Messages).

– تمام.

– دوري على كلمة (dictionary) أو قاموس.

– لحظة، آه، أهه.

– طيب؛ اختاريها.

– ماشي، فيه قائمة عبارة عن مجموعة لغات.

– طيب، أي لغة اللي عليها الإشارة.

– English.

– طيب حتلاقي كلمة (Dictionary Off).

– آه، موجودة.

– حركي الزرار، واختاريها.

– خلاص.

– حاولي تكتبي أي رسالة كده.

– استنى... برافو يا إبراهيم، هايل، إنت مافيش منك... باي باي دلوقت.

– باي باي إيه، ماقلتليش الدكتور قالك إيه النهارده؟

– بيسألني تاني عن تاريخ أمراض بابا من ساعة ما أنا وعيت عليه.

– دﻟ ليه ده كله؟

– مش عارفة يا إبراهيم؛ واضح إن موضوع مرضه ده محيرهم على الآخر، وابتدا يبقى بينهم ترجيح إنه اتعرض لنوع من السموم، مش معروف أو بمعنى أصح مش ظاهر لسه أي أثر في التحليل.

– طيب ليه سم؟ ليه مش نوع مرض غريب؟

– مش عارفة يا إبراهيم. أنا مافهمتش نصف كلامه، إنما الأعراض على بعضها ملخبطاهم.

– طيب حاشوفك امتى؟

– حاكلملك وأنا مروحة... بس بصراحة إنت هايل، حاديلك مكافأة هايلة كل البهوات إللي هنا ماعرفوش يحلوا لغز التليفون ده.

بعد أن أقفلت الخط كان لكلماتها الأخيرة رنين خاص في أذني: لغز التليفون: ... الرسالة ... القاموس ... أزرار الأرقام ... الحروف ... يا إلهي، لقد حلت هناء اللغز دون أن تدري!!

***

كان أهالي الطيبة أكثر تقبلًا لتصديق قصة جميل وياسين، فمن ناحية لم يكن لهم مصلحة مباشرة مع شركة ليراس، ومن ناحية أخرى فإن المؤسسة الشرقية قد نجحت في تشويه سمعة ليراس، والشركة الأم "ماس" بأنهما تقومان بعملية استغلال لأراضي الفلاحين لعمل تجارب عمل زراعية محظورة، ومن ناحية ثالثة لم يكن الود قائمًا بين عمد القريتين، منذ زمن بعيد...

ساعدت كل تلك العوامل في احتضان أهل القرية للرجلين وضمهم للجمعية الأهلية بها للاستفادة بخبرتهم السابقة في كفر سلطان...

ولم يكن من الصعب بعد ذلك على رجلين مثل جميل وياسين أن يملكا زمام الأمور في الجمعية وبالاستعانة بدعم خال سماح من ناحية وبالمؤسسة الشرقية التي يرتبط بها جميل بعلاقات سابقة من ناحية أخرى...

وصل ياسين عبد القادر لرئاسة الجمعية، وجميل الحسيني لمنصب نائب الرئيس! وبدلًا من رئاستهم لجمعية كانت أهدافها المعلنة مخالفةً لأهدافها المستترة، وتعمل في مناخ متوتر دون الإفصاح عن اسم عدوها؛ أصبحت قيادتهم جمعيةً تعمل بكامل حريتها، وتعلن عداءها الكامل لشركة ليراس مقابل ولاء غير محدود للمؤسسة الشرقية...

وبعد أن كانت الموارد منحصرةً في مساهمات أهل كفر سلطان أصبحت تشمل مساهمات أهل قرية الطيبة، ودعم كامل من المؤسسة بالإضافة إلى

المساهمات المستترة من أهالي كفر سلطان المؤمنين بخطورة وجود ليراس على أرضهم، ولكن لا يستطيعون الإفصاح عن ذلك...

كانت هناك حركات تمرد تظهر من حين لآخر داخل كفر سلطان؛ تحاول أن تعلو بصوتها لمقاومة وجود شركة ليراس، ولكن لم تكن ترقى للشكل القوي الذي شكله ياسين وجميل، وكانت تُقَابَل بحسم فوري وعنيف؛ يشمل التنكيل بالمتمردين وعائلاتهم بتلفيق التهم الجاهزة، وإيداعهم غياهب السجون، ومن يستطع الإفلات كان ينضم لجمعية الطيبة...

وعندما كنت أسأل ياسين بك: لماذا لم يتخذ العمدة والشركة مثل تلك الأساليب العنيفة معهم عندما كانوا في الكفر؟ كانت إجابته أن جماعتهم كانت أكثر ذكاءً وحكمةً في التعامل معهم، ولولا تلك الغلطة التي غيرت مسار قضيتهم، وأخرت خططهم لأطاحوا بالشركة في غضون شهور قليلة...

أما من حاول أن يحذو حذوهم من شباب الكفر؛ فلم يكونوا سوى بضعة شباب يغلب عليهم الحماس والطيش دون أي فكر مخطط ومحسوب...

وكان على الرغم من الحب الجارف الذي أحبته له سماح إلا أنها استجابت لرغبته في تأجيل فكرة الإنجاب... لم يكن حبها له مجرد

مشاعر مشبوبة، بل كانت منبهرةً به شأنها شأن كل من عرفه، واتصل به عن قرب، وعلى رأسهم خالها الذي اعتبره ابنه الوحيد؛ حيث لم يرزقه الله بأولاد حتى أنه أوصى له بقطعة أرض بعد وفاته.

كانت كل الظروف مواتيةً له حتى يصبح من الأعيان، ويعيش عيشةً رغدةً بلا أي منغصات، ولكنه لم يكن يلتفت لكل ذلك وكأنه نذر حياته لخدمة القضية، وكان يشاركه في كل ذلك جميل الحسيني...

كانت كل حسابات الجمعية تحت تصرفهما، ولكن لم يستغلا منها سوى احتياجاتهم الأساسية، وحتى عندما قرر مجلس الإدارة فتح حساب في بنك المدينة نظرا للتزايد المضطرد في الموارد المالية أجمع الأعضاء على جعله تحت مطلق تصرف الاثنين لثقتهم في زهدهما...

وفي غضون سنوات قليلة أصبح للجمعية شأن كبير نظرًا للتوسع الذي تم في العمليات التجارية من البيع المباشر لمحاصيل الفلاحين وتطوير إنتاجية الفدان بمعاونة المؤسسة الشرقية؛ التي حرصت على الاكتفاء بالدعم المادي والفني دون التوسع في شراء الأراضي، أو إقامة مشروعات خاصة في الوقت الذي استحوذت فيه شركة ليراس على معظم الأراضي الصالحة للزراعة بكفر سلطان، وفتحت خطًّا مباشرًا لتصدير منتجاتها من الأسمدة المزعومة.

وفي تلك الأثناء لم يكف جميل الحسيني عن محاولاته في اختراق أجهزة ليراس الأمنية تارةً عن طريق إرسال مجموعات صغيرة تحت

جنح الظلام لسرقة البراميل أثناء تحميل السيارات أو أثناء نقلها لأماكن الشحن، وتارةً أخرى عن طريق تجنيد بعض العاملين بالشركة، ولكن باءت كل المحاولات بالفشل الذريع حتى بدا اليأس يدب في قلبه.

***

كنت على قناعة شبه أكيدة أني مراقب مراقبةً لصيقةً وأنهم على علم بكل مرحلة أصلها في طريق حل أحاجي وألغاز ياسين عبد القادر، وكأنهم ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض... ويبدو أن هذا الشعور انتقل إلى هناء بالإيحاء، مما أشاع حالةً من التوتر مع كل مقابلة حاول كل منا إخفاءها بقدر ما يستطيع...

- تفتكر إنهم سمموه يا إبراهيم؟

- همه مين؟

- المستفيدين من موته؟ شركاؤه و...

- ومدام سهير.

- مش عارفة... متهيأ لي إنها مش شريرة للدرجة دي.

- إنما مش مستبعدة عن الباقي؟

- الدكاترة كإنهم خايفين ينطقوها؛ ويقولولي إنهم متأكدين إنه مسموم وبنوع سم مالوش أي أثر... تفتكر جابوا السم ده منين؟

– هناء احنا كده هانضيع وقت كبير في موضوع مش حانوصل فيه لنتيجة خلينا نركز في اللي احنا فيه... أنا اكتشفت حل معضلة الرسالة...

– بجد؟ إزاي؟

– الحقيقة إنك إنتِ إلى حلتيها لي ومن غير ما تقصدي... هاتي موبايلك...

ضغطت على اختيار الرسائل ثم اخترت القاموس، فاللغة الإسبانية، ثم بدأت كتابة الرسالة التي لم تكن سوى رقم هاتف ياسين بك، وبعده سبعة وزائدان ومع كل رقم كنت أضغط عليه كان يظهر حرف وبالضغط على الرقم التالي تتغير الحروف...

| | |
|---|---|
| U | 8 |
| Te | 3 |
| Ver | 7 |
| terra | 6 |
| Verme | 3 |
| Verme | 0 |
| Verne e | 3 |
| Verme es | 7 |
| Verme dr | + |
| Verme er | + |

صرخت هناء قائلةً:

– فيرمير الرسام المشهور، فيرمير الراجل ده اتكتب عنه قصص وروايات وله لوحات مشهورة.

– هو ده اللي يقصده. إنه (الفنان)؟

– أكيد؛ بس مش قادرة أفتكر كانت إيه قصته بالظبط.

– وعندكم لوحات له؟

– لا.

– متأكدة؟

– أنا عارفة أسماء كل الرسامين اللي لوحاتهم عندنا.

– بس هو بيقول أخفتيه بأسلوب فنان... ده كان إيه أسلوبه بالظبط؟

– مش فاكرة أو بالأصح مش عارفة، ماكنش عمره في دائرة اهتمامي.

– عمومًا مش مشكلة، نقدر ندور على الانترنت أكيد هانلاقي معلومات كتير عنه لو مشهور زي ما بتقولي، بس هو ليه اسمه مقسوم نصين كده Verne er.

– خلي بالك الطريقة إللي طلعنا بيها الاسم ونضيف 7 وزائد مرتين أكيد بابا كان بيحاول يلاقي طريقة يطلع بيها الاسم في القاموس لأقرب ما يمكن.

– معاك حق قاموس التليفون لا يمكن يكون فيه اسم فيرمير، ده محفوظ مهما كان مش ليوناردو دافنشي يعني.

– بالضبط كده.

– بس مش غريبة إنه يكون اسم الراجل اللي والدك عايز يخفي اسمه يصادف إنه نفس رقم تليفونه مش صدفة عجيبة شوية؟

– مش عجيبة ولا حاجة بابا هو اللي مختار الرقم ده من ساعة ما المحمول ظهر... إنت نفسك استغربت إن بابا عنده خطين، ورغم إن كل خط بيتبع شركة محمول مختلفة، إلا أنه نفس الرقم وما يفرقش بينهم غير كود الشركة في الأول.

– أيوه؛ صح، أنا كنت ناسي الحكاية دي، وكنت مستعجب رغم إنه واصل وله واسطة جامدة في كل حتة، وبيختار الرقم اللي هو عاوزه ليه بيختار رقم صعب ودايما كان يجاوب إنه مابيحبش النمر السهلة، وقاصد يختارها كدها.

– يالله... يا بطل على الكمبيوتر بتاعك؛ خلينا نشوف أسلوب صاحبنا يطلع إيه.

***

لم يجد جميل الحسيني سبيلًا أمامه سوى المؤسسة الشرقية لمعاونته بشكل جدي ومباشر لتوفير سلاح له ولرجاله لشن هجوم

على مصنع ليراس، والاستحواذ على المخزن وإرساله للتحليل وكشف الملعوب برمته.

دُهِش ممثل المؤسسة لما يطلبه جميل، وحاول إقناعه أن ما يفكر فيه هو بمثابة سطو مسلح؛ مما يصل بالقضية إلى أبعاد لا يُحْمَد عقباها.

– وحتى لو افترضنا يا أخ جميل إن عمليتك نجحت وقدرت تدخل وتحصل على المخزون ومش هانتكلم إن عملية زي كده ممكن يبقى ليها ضحايا بالعشرات، سيبك من كل ده، إزاي حاتقدر تقنع السلطات بشرعية الاقتحام بالطريقة دي؟

– شرعية إيه حضرتك؟ لما يتأكدوا من حقيقة الموضوع وإننا كشفنا موضوع خطير بالشكل ده لازم حايقدروا إن دي الطريقة الوحيدة اللي كانت قدامنا.

– يا أخ جميل مهما كانت غايتك نبيلة الحكومة مش ممكن تتغاضى عن الطريقة إللي استخدمتها، وخصوصًا إذا حد مات، حتى لو كان واحد ولا حتى حد حصل له عاهة مستديمة... مهما تقول لي حاتدخل في مشكلة كبيرة، ولو عرفوا إننا مصدر تمويلك بالسلاح حاتدخلنا إحنا كمان في مشاكل مش قدها. احنا في اتفاقات بتحكمنا مع الحكومة.

– يعني؛ هما هايسيبوا الكارثة اللي الناس دي قاعدة بتحضرها ومش حايبقى لهم هم إلا واحد أو اثنين أو حتى عشرة ماتوا... دي

مصيبة على البلد كلها مش بس كفر سلطان، ولو متنا كلنا، برضه فده بيخلي الوسيلة مشروعة لأن الغاية هنا أكبر من أن تناقش.

– على علمي إن الغاية تبرر الوسيلة ده مبدأ مرفوض عندك على طول الخط، وسبب خلافك المستمر مع ياسين.

– أنا اختلافي مع ياسين دائمًا على نوع الوسيلةز أنا ضد أسلوب المماطلة والمخادعة...

– إنما مش ضد الطرق الغير قانونية؟

– باقولك إيه؟ احنا هانقعد نفلسف الأمور، واضح إنكم مش عايزين تساعدونا.

– ماقدرش أساعدك على حاجة غلط سواء كان غلط أخلاقي أو قانوني.

– أمال هاتعملولنا إيه؟ اتفقنا إننا مع بعض في خندق واحد وإنهم عدونا الوحيد وبعدين؟

– الحل إننا مانسيبهمش يفرضوا سيطرتهم، ويعتقدوا إنهم القوة الوحيدة اللي بتملك التكنولوجيا والتمويل يقوموا يبلعوا كل الكفور اللي حوالين كفر سلطان.

– حاجة حلوة أوي؛ الكفور اللي حواليها، إنما كفر سلطان خلاص بقت بتاعتهم، لا يا أخ إنتم كده بتدوروا على مصلحتكم إنتم وبس، ومصلحتنا ماتهمكمش نهائيًّا...

توترت العلاقة بعد تلك المقابلة بين جميل الحسيني وإدارة المؤسسة، وأصبحت تفضل التعامل مباشرةً مع ياسين عبد القادر مما أصاب جميل بإحباط شديد، وأحس أن كل آماله في إزاحة الخطر عن بلدته تتبخر أمامه...

وعلى الرغم من ثقته في ياسين إلا أنه كان يشعر أن الأمر أصبح أشبه بالورم السرطاني الذي لا يجدي معه العلاج بالعقاقير ولا أمل إلا بالتدخل الجراحي السريع وإلا سيصبح خارج نطاق السيطرة، ومع ذلك فقد استطاع ياسين إقناعه بالصبر حتى تشتد شركتهم إلى الحد الذي لا يحتاجون فيه إلى معاونة من أحد.

– يا جميل يا خويا ماتنساش إن المال له قوة؛ ما تقلش عن قوة السلاح، وإحنا دلوقت معانا كتير والدخل بـ[illegible]زيد يوم عن يوم.

– وإيه فايدة الفلوس ما دام مبدأ استخدام القوة مرفوض؟

– هو يا جميل ليراس كانت دخلت عندنا بقوة السلاح؟

صمت جميل وبدأ عليه أنه فهم ما يرمي إليه ياسين، ولكنه أخرجه من أفكاره بقوله:

– المهم دلوقت أنا عندي مشكلة مش عارف أعمل إيه؟

– خير؟

– أنت عارف إن أنا وسماح كنا متفقين نأجل موضوع الخلفة ده شوية.

– بس إنتم بقالكم كثير أوي.

– ما هي دي المشكلة، بعد ما قررنا إنه خلاص وجب بقالنا كذا شهر، وما فيش فايدة.

– شفتم دكتور؟

– الدكتور اللي رحنا له قال إنكم اتأخرتم كتير، ومش كويس إن الست تقعد فترة كبيرة كده من غير حمل، قلت أقولك يمكن تكون تعرف دكتور كويس.

– أكيد؛ بكرة الصبح حاخد لك معاد وتروحوا فورًا.

***

– وبتسمي نفسك خبيرة رسم وفن تشكيلي، وما كنتيش عارفة فيرمير؟

– نعم ما أنا قلتلك إنه رسام.

– إنما ماكنتيش تعرفي عنه حاجة! صحيح هو كل اللي رسمه 30 لوحة في حياته كلها، وماكنش معروف في زمنه قوي، إنما في القرن العشرين عملوا عليه كمية أبحاث ودراسات فشر؛ ولا ليونادودافنشي.

– أنا قلتلك إنه اتعمل عليه حاجات كتير، لكن أنا مش فاكراها.

– هاتقاوحي؟ طيب؛ خليك مش فاكراها.

- بطل غلاسة، خلص قول لاقيت إيه؟

- قولي مالقيتش إيه؟ بصي ياستي؛ رسومات الراجل ده عملت جدل واسع جدًّا، وفيه شك أنه كان بيستخدم نوع من العدسات الضوئية في رسم لوحاته، نوع زي المستخدم في الكاميرات الحديثة، لكن في شكلها البدائي.

- عدسات وكاميرا؟ بس ده رسام قديم قوي قبل ما يخترعوا العدسات؟

- ما هي دي اللي لخبطتهم، لأنه عاش في القرن الـ17، ونوع العدسات ده اللي فتح الباب لاختراع الكاميرا بمفهومها الحالي؛ اتعرف في القرن الـ18... المهم القصة كلها ابتدت من لوحة من لوحاته اسمها (Soldiers And Laughing Girl)؛ مرسوم فيها خريطة...

الخريطة دي ما زالت موجودة لحد النهارده، ومرسومة بدقة متناهية بالخط والحرف ماسابش فيها أي تفصيلة صغيرة، وده طبعًا شيء مش طبيعي لأنه عادةً كان المفروض يرسمها بشكل عام إنما ليه التفاصيل دقيقة بالشكل ده؟

وبعد كده ابتدوا يدرسوا باقي اللوحات، فلقوا أن أحجام الأشخاص من خلال المنظور الهندسي مطابق تمامًا للي كانت ممكن يديه النوع

ده من العدسات، ومش متناسب المنظور اللي ممكن تشوفه العين المجردة، وكمان انعكاس الضوء؛ وبالذات على الأجزاء المعدنية...

– هايل؛ وبعدين؟

– القنبلة بقى؛ واحدة من لوحاته تم فحصها بأشعة (X)؛ لقوا إيه تحت اللوحة؟

– يا بنب خلص؛ إنت بتحكي حدوتة؟

– يعني أنا يطلع عيني أربع ساعات بدور، وإنتِ عايزاها في كلمتين.

– يا إبراهيم حاقوم أخبط راسي في الحيطة.

– طيب خلاص؛ لقوا تحت اللوحة المرسومة مش مجرد خطوط أو اسكتش لوحة، إنما لوحة كاملة نفس اللوحة بالظبط، وبكافة التفاصيل، إنما بالأبيض والأسود، والحقيقة إن فيرمير كان مصور ورسام في وقت واحد؛ يحط العدسة قدام الصورة اللي هو عاوزها ويطلع صورتها من خلال العدسة على الحيطة، ويمشى على الخطوط لحد ما يخلص الرسمة كاملةً وبعدين ياخدها ويلونها، ويطلعها بصورتها النهائية...

– بس كل ده مجرد تصور! مافيش دليل أكيد عليه!

– واحد عالم عمل نموذج كامل لواحدة من لوحاته اسمها (The Music Lesson) بالأثاث والكراسي، واستخدم عدسة شبيهة، وصور صورة طلعت نسخة طبق الأصل من لوحة فيرمير بدقة متناهية.

– طيب وإزاي الفرضية دي مشيت، وماكنوش اخترعوا لسة العدسة دي في زمنه؟

– اكتشفوا حاجة تانية غريبة؛ إنه مولود في نفس البلد ونفس السنة اللى اتولد فيها "ليوفنهوك" مخترع الميكروسكوب؛ يعني واضح إنه عاصر اختراع النوع ده من العدسات في بداياته الأولى، وقعد يفن في لوحاته لما قال يكفي.

– هايل يا إبراهيم؛ بصراحة دي حاجة جديدة مامرتش علي قبل كده، إنما الظاهر فعلًا ماكنتش أعرف غير اسمه، إنما تفتكر أسلوبه ده؛ بابا استخدمه إزاي؟

– أكيد مش بالطريقة المعقدة دي: عدسات وتصوير، إنما اللي يتبادر لذهني دلوقت إن فيه صورة مخفية تحت لوحة مرسومة؛ مطلوب مننا نوصلها.

– صح؛ هو ده التفسير المنطقي الوحيد، إنما إيه اللوحة اللي وراها الصورة المخفية دي؟

– إنت بتقولي ماعندكوش ولا لوحة لفيرمير، متأكدة من المعلومة دي ولا يطلع فيه لوحة بتاعته ماكنتيش عارفاها؟

– لا؛ دي متأكدة منها.

– ما هو كمان مش معقول نجرب كل اللوحات اللي الموجودة عندكم.

- نجربها إزاي؟

- نحاول نشوف إذا كان تحتها صورة فوتوغرافية. بس...

- بس إيه؟

- لو رجعنا تاني لحرفية كلام والدك بالظبط، وبأسلوب فيرمير الصورة دي هاتكون اللوحة مرسومة عليها رسم يعني مش مجرد صورة ولازق فوقها اللوحة.

- يعني ده معناه إن أي لوحة هانجربها لازم نبوظها ونمسح الألوان اللي عليها.

- بالظبط كده.

- بس ده مستحيل، كده ممكن نبوظ كل اللوحات.

- طب تعالى نقرأ تاني جايز يكون فيه إشارة معينة.

- يقول:

**على بعد ذراع مني تقف راهبتان**

**ارجع البصر هل هو وجه إنسان؟**

**في مسرحيته تركت لـك رسالة**

**مفتاحها أخفيته بأسلوب فنان**

**حتى تعرفه اكـتـب لي رسالة**

**بـقـامـوس ذلــك الـرسـام**

**فما رقم هاتفي بعده سبعة وزائدان**

**إلا اســم ذلــك الـفـنـان**

– عرفنا وجه الإنسان فولتير ولقينا الكتاب اللي فيه مسرحياته ومطلوب نلاقي المفتاح اللي حايكون موجود في صورة تحت لوحة مرسومة بالطريقة اللي استخدمها الفنان اللي هو فيرمير، كده اللغز كله تقريبًا بقى واضح، إنما مافيش إشارة واضحة هو أخفى المفتاح فين.

– يمكن لوحة دالي اللي فيها صورة وجه فولتير؟

– بس اللوحة دي إنتِ قلتِ إنها مش عندكم.

– بس أنا فاكرة إني شفتها.

– لكن؛ مش فاكرة فين.

– أيوه هي دي المشكلة.

***

مضت أعوام قبل أن يرزق الله ياسين وسماح بمولودهم الأول وكان صبيًّا أسمياه جميل، ولكنه مات وهو في الثالثة من عمره، ومن بعده جاءت هناء، وما زال الوضع كما هو عليه...

توسعت ليراس في شراء أراضي كفر سلطان؛ حتى كادت أن تمتلك الكفر بأسره، وتوسعت المؤسسة الشرقية في الطيبة حتى أصبحت محور النشاط الرئيسي في القرية، وتضخمت ثروة الجمعية التي يسيطر على مقدراتها ياسين ومعه جميل حتى باتا لا يعرفان أين يستثمران تلك الأموال.

– بفكر يا جميل نعمل مركز أبحاث عن الآفات الزراعية، ويكون ده أكبر رد عملي باستخدام أحدث تكنولوجيا.

– إنت يا ياسين إيه حكايتك؟ قاعد تنيمني وسنة ورا سنة بتعدي واحنا قاعدين نتفرج... استنى لما نكبر الفلوس حاتجيبلنا النفوذ اللي احنا عايزينه واحنا صغيرين ماحدش حايسأل فينا، ولما ابتدينا نكبر تقول لي مركز أبحاث يعني إيه؟

– يعني يا جميل عايزنا نعمل إيه؟ مغامرات مسلحة برضه عشان نحاول نسرق برميل من عندهم؟ بقالك كام مرة بتبعت ناس وينضربوا بالجزمة، وماحدش يسمع عنهم ولا عن أهلهم بعد كده؟ مستغرب إني عارف إنك كنت ورا كل المحاولات الفاشلة دي؟ كل معارفك في الحكومة مابقوش بيطيقوا يسمعوا سيرة الموضوع ده، وإنت بتكابر أنهم كلهم بيقبضوا.

– ماتحاولش تشوه كل الناس يا ياسين، لسه فيه ناس شرفاء وعايزين يساعدونا.

– وعلشان همه شرفاء مش عارفين يعملولك حاجة اللي، يقدروا يساعدوك فعلًا لازم تقبضهم علشان يهزوا طولهم.

– طيب مادام عارف كده ما نستخدم الفلوس في تحريك الموضوع بدل ما حنا قاعدين نتفرج.

– دلوقت ما عندكش مانع ندفع ونرشي ونشتري الذمم؟

– مش أحسن من قعدتنا زي الولايا لا حول ولا قوة. أنا حاسس إني عامل زي المرة مش ناقصني غير الطرحة.

– يا جميل هو إنت لو ماكنتش تنتحر ماتبقاش راجل.

– قول لي إيه فايدة كل اللي بنعمله ده؟ مهما يكون معانا فلوس همه برضه معاهم فلوس أكتر، ووراهم مغارة فلوس متنتهيش، والناس خلاص بقت متعايشة عادي مع الموضوع، وفين وفين لما بقابل حد بيكلمني في الموضوع، وناسيين إن لينا أهل في الكفر كرامتهم بتنداس بالجزمة، ولا إنت علشان مالكش حد هناك؟

– أنا مش حارد على كلمتك الخايبة دي. إنت عارف كويس قوي حبي لبلدي وإلا ماكنتش سيبت وظيفة الجامعة من الأول، ومع ذلك ما إنت بتفكرهم كل شوية بعملياتك الانتحارية، وفوق كل ده وده مين قالك إن كرامتهم متهانة هناك؟ الكلام ده في مخك إنت بس.

– يعني ناسي إنهم فضلوا ورا مَرَاة كامل لحد ما أخدت ابنها وسابت البلد.

– يعني هي اتشردت ولا راحت عاشت في خيمة؟ ماهي اتجوزت في مصر، وعايشة أربعة وعشرين قيراط، واحنا ماسبنهاش قبل ما تتجوز، وكانت كل طلباتها مجابة هي وابنها.

– وهي تبقى كده عايشة أربعة وعشرين قيراط. إنت بتفكر إزاي؟ معقولة؟ أنا كنت مخدوع فيك الفترة دي كلها؟ إنت عايز إيه؟ مابتفكرش غير في الفلوس، وإننا يبقى معانا الفلوس اللي تكفي، تكفي لإيه بالظبط؟ نعمل ثروة ونشتري لنا كام دبابة وطيارة.

– لا؛ نعمل ثورة تكنولوجية، ويبقى فيه مركز أبحاث يعمل تجارب على الفطريات وطرق وقائية وعلاجية، ونبيعه للبلاد اللي ممكن تكون معرضة للهجوم من أعداء بيشتروا السم ده من ليراس. ثم إنه؛ تعالى هنا، احنا عاملين الهيصة دي كلها ولحد اللحظة دي هما ما استخدموش الفطريات دي في كفر سلطان نهائيًّا؛ يعني إنت خايف على الكفر من إيه؟ ده كل إنتاجهم بيتصدر لأماكن تانية.

– يا أخي إنت ما عندكش ذرة نخوة؟ مابيحرقكش إننا مش عارفين ندخل بلدنا ولو لمجرد الزيارة؟

– ما هو لو سيادتك بطلت عملياتك العنترية؛ كان زماننا دخلنا وطلعنا عادي من غير مشاكل، لأنهم نجحوا إنهم يقنعوا الكل إنهم مستهدفين، ويا عيني شوفوا الكلاب اللي كل شوية باعتين لنا ناس،

وعايزين يسرقونا ويشوهوا صورتنا، وبقينا احنا ولاد كلب إرهابيين وهما الضحايا مش كده برضه؟

– بص يا ياسين، أنا بقى ضغطي بيعلى كل ما بتكلم معاك أنا اتخنقت منك.

– طيب بس؛ اهدا وفضيلي نفسك بكرة أوريك حتة الأرض اللي حطيت عيني عليها، والرسوم الهندسية لمركز الأبحاث.

– إنت فاكر إنهم هايدوك ترخيص تعمل مركز أبحاث قطاع خاص عن الآفات الزراعية، وبالتحديد عن الفطريات اللي بيصنعوها؟

– لا يا ناصح؛ أنا هاخد تصريح ببناء مستشفى!!

***

– هناء إحنا إزاي مانتبهناش للحكاية دي قبل كده؟

– حكاية إيه؟

– كاترينا بعتت لي صورة من اللوحة اللي والدك عملها حفر في إسبانيا؛ يعني أكيد اللوحة موجودة هناك، وعلشان كده إنتِ بتقولي إنك شفتيها قبل كده.

– تقصد في الفيللا بتاعت بابا هناك؟

– أيوه.

– وإنت فاكرني ما فكرتش في الحكاية دي؟ أنا صحيح مارحتش هناك غير مرتين في حياتي وآخر مرة كانت من زمان قوي، إنما أنا عصرت مخي ميت مرة، متذكرة إنها في أي ركن من أركان البيت هناك.

– هناء إنتِ متأكدة أن ذاكرتك قوية بالشكل ده؟ مش ممكن تكون اللوحة جلت منك؟

– ماتشككنيش في نفسي؛ برضه الاحتمال وارد... مش عارفة... مش متـأكدة...

– أنا عارف إن ذاكرتك فوتوغرافية في الموضوع ده، إنما لو حاجة ماشفتيهاش غير مرة أو مرتين في حياتك كلها برضه الاحتمال وارد.

– معاك حق.

– يبقى مافيش غير إننا نتأكد.

– نسافر إسبانيا؟

– تسافري إسبانيا.

– في الظروف دي وبابا بين الحيا والموت؟

– احنا متفقين إننا ننفذ رغبته في الأول.

– طيب وحاقول إيه لتانت سهير؟ مش حايبقى شكلها غريب. والإخوة الأعداء مش حايشكوا في حاجة؟

– بصي؛ أنا فكرت في كل اللي بتقوليه ده، ولقيت إن أحسن حاجة نستغل حالة البلبلة اللي عند الدكاترة بخصوص حالة ياسين بك، تعملي فيلم إنك مش مقتنعة بكل اللي بيتقال، وقررتِ تاخدي كل التحاليل والأشعة والتقارير وتطلعي بنفسك تعرضيها على الدكاتره بره.

– بس الموضوع ده حايزعل مني الدكاترة هنا وحايعتبروا إني بشكك في قدراتهم أو نزاهتهم.

– شر لا بد منه، بس ده أنسب حل تغطي به سفرك في الظروف دي.

– وممكن كمان أقول إني محتاجة لك معايا علشان ما أسافرش لوحدي.

– لأ؛ كده يبقى اسمه شهر عسل مبكر، ودي مش حاتعدي على طفل صغير، وحايفهموا إننا مسافرين لغرض معين ويمشوا ورانا خطوة بخطوة. الموضوع ده لازم يتسبك منك كويس قوي، وبشوية زعيق في المستشفى علشان تظهري، إنه فاض بيكِ الكيل وعايزة تقطعي الشك باليقين، ولازم تسافري بنفسك تستشيري الدكاتره.

– واشمعنى إسبانيا؟

– لأ، دي سهلة، والدك له بيت هناك وله مكتب ومركز أبحاث وموظفين ممكن يساعدوك، وحاجات كثير. وده أفضل من بلد حاتروحي لسه تفكي فيها الخط.

– معقول برضه، بس أنا مش عارفة حاقدر أعمل الكلام ده من غير ما حد يشك.

– قدها وقدود... حاولي بس تشحني نفسك النهار ده قبل ما تنامي وتقنعي نفسك إنه فيه مؤامرة بتتم على والدك، حتلاقي نفسك بتمثلي وإنتِ سايبه إيدك.

***

# (6)

شبه نيوتن هذا العالم بأنه ساعة كبيرة من صنع الله، المهندس الأعظم، وعندما بدأ الله الحياة على هذه الأرض قام بملء هذه الساعة، وتركها تعمل من تلقاء نفسها بموجب قوانين ثابتة لا تتغير. قوانين غير قابلة للكسر أو التجاوز، تظل تحكم العمل بالساعة حتى قيام الساعة، وهي اللحظة التي يصل فيها زنبرك الساعة إلى آخر مداه.

وما بين تشغيل الساعة وتوقفها قدر الله ألا يفنى أي شيء، وألا يُخْلَق شيء من عدم، إنما له مخزون ثابت لا يتغير، ويكفي كل البشر، فقد استطاع العلم أن يكتشف أولًا أن المادة لا تفنى، ولا تُسْتَحدث من عدم، فيما يُسَمى بقانون بقاء المادة.

ثم اكتشف أن الطاقة لا تفنى ولا تُسْتَحدث من عدم؛ فيما عرفه بقانون بقاء الطاقة. ثم دمج الاثنين معًا في قانون أعم وأشمل هو قانون بقاء المادة والطاقة؛ حيث أن كلًّا منهما يمكن أن يتحول إلى الآخر، ولكن يبقى مجموعهما معًا ثابتًا فلا يفنى ولا يُسْتَحدث من عدم.

(وقانون بقاء المادة كانت فكرةً فلسفيةً؛ ظهرت قبل اكتشاف العلم لها بمئات السنين، وذكرها الشاعر الروماني لوكرتيوس الذي عاش في

زمان يوليوس قيصر)، ثم أثبت علم النفس على يد فرويد أن ما ينطبق على الطاقة في الطبيعة ينطبق على الطاقة داخل الإنسان...

فقال أن هناك كميةً ثابتةً من الطاقة السيكولوجية لكل شخص يُولَد بها، وإذا وُجِد عارض يمنع هذه الطاقة من الظهور فإنها تسعى للخروج بشكل أو بآخر فكتمانها لا يلغيها ولا يؤدي إلى فنائها وإنما يدفعها للتحول والظهور بشكل مختلف، فتتولد مشاعر الكبت الذي يتحول إلى غضب ينفجر على شكل عنف عندما تسنح له الفرصة.

وهكذا كل شيء، فكم الخير في الدنيا ثابت منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة، وكم الشر، وكم الحب، وكم الكره... كلها كميات لا تفنى، ولا تُسْتَحدث من عدم، تتحول من شكل لآخر تزيد أو تقل على حساب بعضها البعض، ولكن يبقى مجموعها ثابتًا...

ولهذا السبب وحده، فإنه لا سبيل لوجود المدينة الفاضلة! تلك التي لا يعيش فيها سوى الحب والسلام والخير، فإن وُجِدَت، فمعنى ذلك أن الشر والكره والقبح قد فنيت، وإذا عادت للظهور فإنها تكون قد اسْتُحْدِثت من عدم، وهذا ضد القانون الذي وضعه الله.

يقول لنا الله عز وجل إنه خلق النفس البشرية متزنةً: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، ويبقى الاختيار للإنسان في

تعزيز إحدى الصفتين على حساب الأخرى وعليها يتحدد الحساب ثوابًا أوعقابًا: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}.

***

استجمعت هناء كل ما تستطيع من مشاعر الغضب والخوف على أبيها ودخلت على سهير قائلةً بانفعال:

– كده مش حاينفع، الموضوع ده لازم يتوضع له حد. أنا حأخذ كل التحاليل والأشعة والتقارير وأسافر بنفسي أعرضها على أكبر الدكاتره في أوروبا.

صمتت سهير برهةً ولم ترد، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا وقالت:

– إنتِ معاك حق، الموضوع ده كده زاد عن حده، احنا إزاي ما فكرناش كده من زمان؟

حاولت هناء كتم دهشتها، فقد توقعت معارضةً قويةً من زوجة أبيها، وكلام من نوع لقد أحضرنا له كبار الأطباء من الخارج، وماذا ستفعلين أكثر مما فعلنا هنا... الخ. وكانت مستعدةً للدخول في نقاش طويل؛ جهزت له نفسها ساعات طويلة، ولكن إذ بها تُفَاجأ بموافقة سريعة دون قيد أو شرط.

أردفت سهير قائلةً:

– أنا اتخنقت من الكلام الداير حواليا، وكأني أنا السبب وإني أنا اللي سممته، لدرجة إني حاسة إن فيه مؤامرة من الشركاء. معاك حق

يا هناء لازم تُعْرَض التقارير الطبية بنفسنا على جهات طبية محايدة. أنا أعرف منين إذا ما كانوش جايبين دكاترة تفصيل علشان يخترعوا حكاية التسمم الغير مفهومة دي. أنا حاسافر بنفسي.

تلعثمت هناء قائلةً:

– معقولة يا تنت، لو حضرتك سافرتِ حايقولوا إنك طلعتِ علشان تجيبي تقارير على مزاجك؛ تبعدي بيها الشبهة عنك، وخصوصًا لو صح ظنك إنهم بيعملو مؤامرة. أنا اللي لازم أسافر.

– طيب نسافر سوا.

– معقولة احنا الاثنين حانسيب بابا، ثم إنه لازم الموضوع ده ييجي عن طريقي وكأنك معارضاه.

هزت سهير رأسها وقالت:

– فعلًا كلام معقول يا هناء. أنا متشكرة جدًّا على شعورك وثقتك إنه ما ليش دعوة بالموضوع ده نهائي.

– طبعًا يا تنت، ده موضوع مش محتاج نقاش.

– طيب وحاتسافري فين؟

– إيه رأيك في إسبانيا؟

عاد شعور الارتياب لسهير تجاه هناء الذي كان قد فارقها مؤقتًا لملاءمة اقتراح هناء لهواها وقالت:

– واشمعنى إسبانيا؟

– يعني عندنا بيت هنالك، وأقدر أستعين بموظفي المركز إني أخذ مواعيد من دكاترة متخصصين، وبعدين عندي فكرة شوية عن اللغة. ثم إن فيه دكتور هناك بابا كان بيروح له لما بيحس بتعب.

– آه؛ بس ده دكتور عيون ما لوش دعوة بحالة بابا.

– يعني على الأقل يقدر يدلني على دكاترة كويسين، عمومًا بلد لينا فيها أكثر من ميزة، بدل ما أروح أطبش في بلد ما أعرفش فيها حد.

– معاك حق، متهيأ لي ده ممكن يكون اختيار معقول. وحاتسافري امتى؟

– بأسرع وقت ممكن، أنا حابدأ فورًا إجراءات التأشيرة وحجز التذكرة. أنا قايمة...

تنفست هناء الصعداء، وهي خارجة وقد أتمت مهمتها على خير وجه، تاركةً لسهير مهمة إبلاغ الباقين وهي واثقة أنها ستقوم بإقناعهم بسهولة دون إثارة أي شبهة.

***

استمر ياسين عبد القادر في تنفيذ طموحاته بإنشاء مستشفى ضخم في مصر وجلب له أحدث المعدات العلاجية من أوروبا، وجهزه بأحدث المعامل وأجهزة التحاليل والأشعة التي تساعده في تكوين مركز أبحاث بيولوجية؛ يصلح لكل الاستخدامات البشرية والنباتية أيضًا...

وحتى لا يشعر أحد بمخططه؛ جعل المستشفى متخصصةً في الأمراض الصدرية، مع وجود قسم خاص لحالات التسمم؛ التي تهاجم الجهاز التنفسي وما يستتبع ذلك بالطبع من أجهزة وكيماويات لفحص السموم، سواء الطبيعية أوالمخلقة.

وبمرور الوقت كان يأس جميل الحسيني يزداد، وتشوشت عنده الرؤية لاستيعاب ما يفعله ياسين، وانتقل عدم فهمه إلى سماح التي بدأت تلاحظ الجفاء الذي دب بين الصديقين وابتعاد ياسين بأفكاره ومشروعه عن القضية الأساسية؛ حتى باتت لا تسمعه يتحدث عن الكفر نهائيًّا، حتى بادرته ذات يوم:

– ياسين، إنت فيه حاجه بينك وبين جميل؟

– أبدًا، إيه اللي بيخليك تقولي كده؟

– يعني ما بقتش أشوفكم مع بعض خالص، على طول كان عندنا أو أنت بتروح له.

– إنتِ شايفاني أنا مشغول بموضوع المستشفى، وهو مش مهتم قوي، وما بيحبش يروح يباشر الانشاءات.

– صحيح، موضوع المستشفى بقى مستحوذ عليك تمامًا، وخايفة إنك تنسى اللي ابتديته كان علشان إيه أصلًا.

– إنت حاتبتدي تتكلمي زيه، المفروض إننا مخططين كل الكلام ده سوا من الأول.

– إنت متأكد إننا فعلًا ماشيين في مخطط متفقين عليه كلنا؟ يعني نفترض إن المستشفى خلصت، وعملت مراكز الأبحاث بتاعتك وكله تمام، وبعدين؟

– بعدين إيه العلم اللي عندهم ما يتواجهش إلا بالعلم، شغل العنترية بتاع جميل أفندي ما يصلحش دلوقت بأي حال.

– يعني حايفضلوا همًّا يصنعوا السموم، وتصنع حضرتك مضادات للسموم علشان تعالج الناس اللي ممكن تتأثر بيه، ويفضلوا همًّا في أرضنا كده للأبد. إيه التركيبة العجيبة دي؟

– إيه يا سماح اللي إنتِ بتقوليه ده؟ مش دي القضية خالص. أنا عايز أكشف مخططاتهم بالعلم والدليل القاطع مش بشوية كلام. بدون شك إننا مش حانقدر نخترقهم، ونجيب دليل مادي من قلب المصنع، إنما لما نحاكي العمليات اللي بيعملوها على ورد النيل ونثبت إنهم بيصنعوا منه سموم حانقدر نصعد الموضوع على أعلى مستوى.

– كلام مش مفهوم، هوإنت لما تعمل نفس العمليات اللي بيعملوها وتقدمها للسلطات؛ ده معناه دليل على أنهم بيعملوا نفس الحاجة؟

– مش بالضبط، إلى إنت مش عارفاه وجميل أفندي إني كونت نظرية إنهم بيوصلوا العملية لإنتاج وسيط غير نشط وبيتصدر بصورته دي علشان ما يعملش أي شبهة، بدليل إننا كل ما ننجح نصادر مواد

من اللي بيصنعوها ما بيطلعش فيها حاجة، جميل عايش في نظرية المؤامرة، ومعتقد أنه بيحصل تلاعب، إنما في حقيقة الأمر همَّا عارفين بيتحركوا إزاي من وراء البارافان.

– بس دي مجرد نظرية، إنت مش متأكد إنه هو ده اللي بيعملوه.

– ابتدت تتكون عندي شبه قناعة، وهو ده الخيط اللي أنا ماشي وراه.

– طيب وما حاولتش تفهم جميل الكلام ده ليه؟

– هو راضى يسمع حاجة؟ بقول لك نظرية المؤامرة مستحوذة عليه.

– ما هو اللي إنت بتقوله في صميم نظرية المؤامرة.

– المشكلة إنها عنده موجهة للمعسكر الصديق، مش المعسكر الآخر.

بدأ عليها اقتناع نسبي لوجاهة المنطق، إنما بقى عندها إحساس أكيد أن اختلاف الرؤية لدى الصديقين سوف تزيدهم تباعدًا بما يضر القضية ولا يخدمها.

***

أصبحت هناء جاهزةً للسفر خلال أيام من حديثها مع سهير، وتوجهنا في يوم السفر إلى المطار، وقلت لها قبل أن تغادر:

– رتبتي حد ينظف لك الشقة أول ما توصلي، دي مقفولة بقالها كثير، وممكن تلاقي تعابين.

– ما تقلقش؛ أخذت معايا تليفون شركة التنظيف، وأخذت منهم معاد كمان، وأكدوا إنه يكفيهم نص يوم على الأكثر.

– تمام، وأخذت معاك كتاب فولتير؟

– خبيته بطريقة فنية لدرجة إني خايفة لوحد لقاه معايا حايفتكر إني مخبية فيه مخدرات.

– إيه العبط ده؟ كنتِ أخذت معاه كتاب كمان في الشنطة الهاند باج عادي جدًّا، معروف إنك بتحبي القراية، وواخداهم تتسلي بيهم في المطار أو في الطيارة. إنما تخبيه كده ده مش صح.

– أهو اللي حصل بقه، المهم خلي بالك من نفسك وحاتصل بك أول ما أوصل مطار مدريد.

– خلي إنتِ بالك من نفسك وخلي موبايك مفتوح على طول.

ودعتها وانصرفت وأنا مشفق عليها في مهمتها التي أملت أن تنتهي بسرعة حتى لا تزداد الأمور هنا تفاقمًا.

توجهت هناء مباشرةً إلى فيللا ياسين عبد القادر الواقعة في أرقى ضواحي مدريد، ووجدت شركة التنظيف في انتظارها، ولكنها ما أن حاولت إدخال المفتاح لفتح الباب حتى انفتح الباب، وظهر لها رجل لم تعرفه فصرخت فزعةً إلى أن قال لها بعربية سليمة، ولكن بلكنة إسبانية:

– مدموازيل هناء، اتفضلي.

- إنت مين؟

- أنا كلود المشرف على القصر.

- آه؛ أهلًا وسهلا

- إنما مين دول؟

- دول شركة التنظيف: أنا كنت فاكرة إنه مافيش حد في البيت.

- مـدام سهير اتصلت بي وبلغتني بوصولك النهار ده، هي ماقالتلكيش؟

- لا، في الحقيقة ما قالتش حاجة، إنما كويس؛ وفرت علي كام ساعة مش عارفة كنت حاقضيها إزاي في عفرة وتراب على بال ما بيخلصوا.

- طيب تسمحيلي أصرفهم وأحاسبهم على حضورهم هنا.

- آه؛ طبعًا اتفضل.

- حضرتك شايلة شنطك بنفسك؟ فين سواق المركز؟

- أنا جيت في تاكسي.

- معقولة؟ ليه ما اتصلتيش بالمركز؛ كانوا بعتولك عربية لحد المطار.

- الموضوع مش مستاهل. إنما إنت مقيم هنا؟

- لأ؛ أنا باجي كل يوم الصبح، وأمشي بعد غروب الشمس ما عدا السبت والأحد...

كان ترتيب هناء هو الانتهاء من ترتيب المنزل قبل إخطار أي أحد في مركز الأبحاث، الاتصال بهم في اليوم التالي لترتيب مقابلة الأطباء لعرض التحاليل والأشعة، ولكن بدا لها أن وجود كلود قد يعيقها في البحث بحرية، فأخذت في التفكير في طريقة للخلاص منه؛ خاصةً إنها وصلت يوم الثلاثاء وباقي أيام على أجازته الأسبوعية.

قضت عدة ساعات في المنزل بذهن شارد غير مستطيعة التركيز في أي شيء حولها، حتى في اللوحات التي ملأت جميع أرجاء المنزل، فقد كانت تعلم أنها لو وجدت اللوحة سوف تندفع نحوها دون النظر لوجود كلود، إلى أن جاء صوته من خلفها.

– محتاجة حاجة ثانية يا مدموازيل هناء؟ أنا رتبت كل حاجة بحيث تكون في متناول إيدك وماتحتاجايش تدوري على أي حاجة، بس متهيألي لازم أوري حضرتك إزاي تشغلي نظام الإنذار في القصر علشان تكوني مطمنة بالليل.

وقفت تستمع إليه في إنصات وهو يشرح لها كيفية تشغيل وإغلاق جهاز الإنذار إلى أن قال لها:

– وتخلي بالك من أي حركة عنيفة في اللوحات المعلقة لأنها متوصلة بجهاز الإنذار.

– بس أنا فاكرة إن بابا مش مخلي أي لوحات أصلية في البيت؟

– ده صحيح؛ بس نظام الإنذار ده موجود من أيام اللوحات الأصلية ما كانت موجودة.

– بس، إنت عارف، قصدي أنا دارسة فن، وبحب أتفحص في اللوحات غصب عني.

– ما فيش مانع بس من غير حركات مفاجئة، أورفعها من مكانها.

لم تكن مستعدةً لتلك المفاجأة، وإن فكرت بسرعة إنها تستطيع إغلاق جهاز الإنذار أثناء فحصها للوحات. لم تمض ساعة على ذهاب كلود لم تضيع هناء فيها دقيقةً واحدةً في البحث في جميع لوحات المنزل دون أن تجد اللوحة المطلوبة؛ حتى فُوجِئَت بقرع جرس الباب الخارجي، فتستمرت في مكانها وكأنها دخيلة اقتحمت المنزل لسرقته...

تمالكات نفسها بصعوبة وسارت بخطوات بطيئة نحو الباب ونظرت في العين السحرية. ازدادت المسافة تباعدًا بين الرجلين فقام ياسين عبد القادر باستقطاب اثنين من رفقاء الكفاح الأول، وحرص على انتقائهم بعناية لمعاونته في إدارة مركز الأبحاث. لم يكن هناك مجال للمقارنة بينهما، وبين جميل الحسيني، فالمسافة كانت بعيدةً، وليست في صالحهما على أية حال، ولكن كان كل منهم مناسبًا للمرحلة...

فقد أدرك ياسين بفراسته أن أسعد مندور على الرغم من هدوئه الظاهري واتزانه محدود الذكاء والطموح من جانب، ولكنه على

الجانب الآخر على استعداد للعمل المتواصل بلا كلل، وتنفيذ ما يُعْطَى له من تعليمات بدقة متناهية. وإذا أُضِيفَ إلى ذلك حبه الشديد للمال أصبح أداةً طيعةً في يده، والرجل المناسب لأن يصبح ذراعه الأيمن في المرحلة التالية.

وعلى نقيضه كان نبيل الشيمي عصبيًا مندفعًا جريئًا ولا يحفل بالمال بقدر ما يستطيع هذا المال أن يحقق له إشباعًا دائمًا من النساء، ومع توسع دائرة الأعمال كان لا بد له من الاستعانة بأحد الشباب المشهود لهم بالذكاء، تربى على يديه ويدين له بالولاء المطلق.

فكان أحمد قاسم تركيبةً فريدةً اختارها ياسين بعناية فكل منهم على حدة لا يشكل تهديدًا مباشرًا لياسين، ولكنهم مجتمعين يصبح لهم شكل له معنى، ولكن تنافر طباعهم جعل من المستحيل تواجدهم إلا في حضور ياسين عبد القادر. كانت تلك هي المجموعة التي اختارها ياسين عبد القادر ليدق بها آخر مسمار في نعش العلاقة بينه وبين جميل الحسيني.

***

لم يكن الشكل غريبًا عليها إطلاقًا، كانت تعرف هذا الوجه بالتأكيد، ولكن من؟ وأين رأته؟ لم تسعفها ذاكرتها، ومع ذلك فقد توجست خيفةً وسألت:

- مين؟

– أنا جميل الحسيني، مين إنتِ؟

فتحت الباب مسرعةً وقالت:

– أنكل جميل، مش معقول، عرفت إزاي إني هنا؟ وبتعمل إيه في إسبانيا؟

– مش معقول، إنتِ هناء؟

– أيوه يا أنكل جميل، مش فاكراني.

احتضنها قائلًا:

– مش معقول، إنتِ كبرتِ خالص، مش مصدق عيني.

قالت وهي تفسح له الطريق للدخول:

– بس حضرتك عرفت إزاي إنه فيه حد في البيت؟

– أنا الفيللا بتاعتي قدامك على طول، يا دوب بيفصل بيننا الشارع، وكلود بيمشي قبل المغرب وما بيولعش النور أبدًا، فاستغربت إن النور مولع، واتهيألي إني شفت خيال واحدة ست.

– أيوه صح؛ افتكرت إن بيت حضرتك كان قدامنا بالضبط، إنما عمومًا دي فرصة تجنن، أنا مبسوطة إني شفتك.

نظر إلى وجهها متفحصًا وعلى طرف شفتيه ابتسامة حانية:

– ياه، جميلة زي المرحومة أمك بالضبط.

– ياه يا أنكل جميل كان نفسي بشكل أشوفك وأقعد معاك من زمان، اتفضل نشرب حاجة مع بعض.

– يا بنتي إنت لسة جاية من السفر، تعالي معايا الفيللا، وعندي اللي يعملولك كل اللي إنتِ عايزاه.

– معقولة حضرتك تبقى دخلت البيت ونخرج على طول كده؟ نقعد ندردش شوية، وكلود مرتب كل حاجة، في ثواني حاعمل حاجة نشربها، وبعدين علشان أبقى على راحتي.

لاحظ إنها تلمح لوجود عائلته في الفيللا، وإنها لا تعرف أحدًا منهم.

– أنا يا بنتي عايش لوحدي، لا عيل ولاتيل.

– هو حضرتك ما عندكش أولاد يا أنكل جميل؟

– هو أنا كنت اتجوزت من أصله علشان يبقى لي أولاد.

– معقولة؟ ليه كده؟

– لا؛ ده موضوع يطول شرحه. إن كان ولا بد أنا حاقعد أشرب معاك الشاي، بس على وعد تتعشي معايا بكره.

– وهو كذلك.

– احكيلى إيه أخبارك؟ اتخرجتي ولا لسه؟ مخطوبة؟ متجوزة؟

– واحدة واحدة على يا أنكل حاحكيلك كل حاجة، بس الأول أنا عايزة حضرتك اللي تحكيلي؛ ليه قاعد لوحدك في إسبانيا، وبقالك سنين

ما فيش أخبار عنك؟ وكل ما أسأل بابا عنك يقول مسافر. إنت عارف أن حضرتك الوحيد اللي جاب سيرة المرحومة ماما من سنين طويلة.

– ياه. المرحومة أملك. أنبل مخلوقة على وجه الأرض. كانت غلطة عمري إني ساعدت أبوكِ إنه يتجوزها.

صُعِقَت من الجملة، وبدا عليها الانزعاج، فقال:

– ما تستغربيش كلامي. أمك كانت أقرب للملائكهةمنها للبني آدمين. إنما سيبك إنتِ برضه ما كانتش غلطة قوي لأنها سابت أجمل ذكرى ليها في الدنيا... بنت قمورة شبه أمها في كل حاجة.

انفرجت أساريرها قائلةً:

– بس ده يمكن في الشكل بس.

– أنا نظرتي في الناس ما تغلطش أبدًا، إنتِ شبهها شكلًا وموضوعًا.

– بس أول مرة أعرف أن رأيك في بابا عكس رأيك فيها؟

نظر إلى بعيد، وظهرت عليه علامات الحسرة والألم الدفين:

– آه، أبوكِ ده رواية ثانية خالص، طموحاته كانت أكبر بكثير من توقعاتي...

– يعني نظرتك في الناس ممكن تلخبط؟ أهه.

– إطلاقًا؛ كل ما في الأمر أني كنت عارف إنه طموح بشكل غير عادي، لكن كنت مقتنع، أو معتقد إنه مهما كان كل إنسان له سقف في طموحه. أبوكِ إداني مثال حي على الطموح الجامح اللامحدود.

– للدرجة دي؟

– شوفي إنتِ بتقولي «الدرجة»، وده ضمنًا معناه شيء محدد له مستوى معين، مرئي ويمكن قياسه، والدك كان تجسيد لعلامة اللانهاية الـ(Infinity) اللي نستعملها لمجرد التعبير عن شيء غير واقعي وغير ملموس.

إيه ده كله يا أنكل جميل، إيه اللي حاصل بينكم علشان تتكلم بالمرارة دي؟ ده حضرتك حتى ماسألتش عليه وهو عيان في المستشفى.

– والداك عيان؟ أشك!

– هو في المستشفى من مدة.

– إيه؟

– وعكة مطولة عليه شوية.

– عيان ومريض أشك بشدة. والدك من النوع اللي لا يحين أجله حايختفي في ثانية إنما يمرض ويعاني ويتألم ده وهم كبير؟

– معقولة؟ ليه إنت قاسي عليه كده؟ هو في حد كبير على المرض؟

– ماتأخذنيش يا بنتي، أنا مش قادر أتعاطف معاه وخصوصًا إن مرضه الأخير مشابه تمامًا لمرض والدتك في أيامها الأخيرة، واللي

اتعمل معاها هو منتهي البرود والقسوة لحد ما اتوفت، وما حدش كان عارف إيه سبب مرضها بالضبط.

– أول مرة أسمع الحكاية دي. يعني إيه كان مشابه تمامًا لمرض أمي؟

– زي ما بأقول لك، احتار الحكماء في مرضها، وكان فيه شك كبير إنها أخذت سم مش معروف مصدره مش ده برضه اللي بيقولوه عن مرضه الحالي؟

– بالضبط؛ وده السبب الرئيسي لسفري لإسبانيا، علشان أعرض التحاليل والتقارير الطبية على الدكاتره هنا.

– ما تتعبيش نفسك، مش حاتوصلي لحاجة، ولو محتارة قوي إسالي والدك؛ هو اللي حايكون عارف بالضبط عنده إيه.

– بابا في غيبوبة يا أنكل.

ظهرت عليه علامة الاندهاش وقال:

– غريبة قوي؟! غيبوبة؟ والدتك ما مرتش بالمرحلة دي.

– شفت إن حضرتك ممكن تكون ظالمه، وممكن يكون عنده حاجة غير اللي حاصل لها.

– احتمال، الله أعلم، التقارير الطبية معاكِ؟

– أيوه؛ طبعًا.

– عندك مانع أبقى أبص عليها؟

– طبعًا، يا ريت على الأقل تساعدني إني أفهم فيه إيه، بس إيه حكاية السم دي؟ وماما؛ فعلًا ماتت مسمومة؟

– ما حدش عارف. موتها كان لغز كبير؛ حاولت بشتى الطرق إني أوصل له ما عرفتش. بأقولك إيه؛ إنتِ لسه واصلة، حانقعد نتكلم عن الموت والمرض، هو إنتِ ناقصة؟!

– لأ؛ بالعكس، أنا عايزة أعرف منك حاجات كثيرة مش فاهماها عن علاقتك ببابا، وإيه اللي حصل بينكم.

– بكره على العشاء أنا حاكون منتظرك، وأحكي لك على كل حاجة أنتِ عايزاها...

ودعها وانصرف، وأخذت تبحث بعد انصرافه في جميع أنحاء القصر على لوحة دالي، ولكن عبثًا. لم تكن موجودةً على الإطلاق، حتى غلبها النعاس فنامت...

***

اتصلت بي هناء في الصباح، وحكت لي تفاصيل اليوم الأول لها في إسبانيا، وذلك قبل أن تغادر المنزل في طريقها إلى المركز الطبي الذي أخذت منه موعدًا مسبقًا لعرض التحاليل الطبية الخاصة بياسين بك، وهي خطوة كان لا بد منها حتى تضفي الشرعية المطلوبة على رحلتها.

ثم عادت بعد ذلك إلى الفيللا تبحث في كل أركانها عن اللوحة المطلوبة ولكن بلا جدوى، حتى حان موعدها مع جميل الحسيني فارتدت ملابسها، وعبرت الشارع إلى حيث يقيم.

لاحظت في بداية الأمر أن أسوار فيللته لها نفس الشكل المكون من الأسياخ الحديدية مثل معظم البيوت في الشارع، ولكنها كانت أكثر ارتفاعًا بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى أن الأشجار الكثيفة كانت تصطف ملاصقةً للسور من الداخل ولها نفس الارتفاع تقريبًا؛ بحيث يصعب على القادم رؤية ما في الداخل، بعكس فيللا والدها التي تستطيع رؤية حديقتها من خلال الأسياخ الحديدية.

وعندما قرعت الجرس لاحظت اللمبة الحمراء الصغيرة في أسفل الكاميرا المثبتة على أعلى نقطة في السور قد تحولت إلى اللون الأخضر خلال ثوان، وفُتِحت البوابة وخرج لها حارس عملاق يقبض في يده طوق كلب روت وايلر ضخم؛ أفزعها مجرد النظر إليه.

أشار لها الحارس بالدخول وهو يرمقها بنظرة باردة من خلفي نظارة سوداء. وما إن خطت خطواتها الأولى داخل حديقة المنزل وجدت أكثر من ستة حراس لا يقلوا عن زميلهم الذي فتح لها الباب، حتى خُيِّل إليها أنها تنظر إلى نسخ مستنسخة من أرنولد شوارزنيجر في أوج تألقه، ويسير ثلاثة منهم بصحبة باقي عائلة "الروت وايلر" الذي استقبلها على الباب...

تذكرت في تلك اللحظة ملاحظةً قرأتها سابقًا عن كلاب الروت وايلر وأن ثلاثة منهم قادرة على قتل أسد، وبدا لها أن المنطقة تعج بالأسود حتى يستعد لها جميل الحسيني بكل هذه الوحوش.

كان من الواضح أن الفيللا محصنة تحصينًا شديدًا، وانتشرت كاميرات المراقبة في كل أنحاء الحديقة مما ألقى في قلبها الرعب، حتى رأت جميل الحسيني بابتسامته الحانية وهو يستقبلها أمام باب الفيللا، فأسرعت الخطى واحتضنته وهي تقول هامسةً في أذنه.

- إنت حاتحارب ولا إيه يا أنكل؟

ضحك ضحكةً عاليةً مجلجلةً وهو يربت على كتفها ويسير بجانبها داخل الفيللا، ثم إلى الحديقة الخلفية التي كان من الواضح أنها أوسع بكثير من حديقة والدها مما أدهشها جدًّا، خصوصًا أن الواجهة الخارجية للفيللا كانت بنفس حجم واجهة الفيللا المقابلة، ولم تستطع كتم دهشتها وقالت:

- غريبة الجنينة! دي أكبر بكتير من الفيللا عندنا، إزاي كده؟

- علشان دي كانت أصلها فيللتين واشتريت الفيللا إلى ورايا وفتحت الجناين على بعضها.

- علشان كده بس متهيألي كان ممكن إعادة توزيع المباني بحيث تبقى فيللا كبيرة بدل من فيللتين بينهم الجنينة الكبيرة دي.

– الكلام ده ممكن في مصر، إنما هنا في إسبانيا التغير الجذري اللي إنتِ بتفكري فيه ده مش ممكن يحصل، لازم تحافظي على المنظر العام للمنطقة.

– بس إيه كمية الحراسة والكاميرات دي كلها؟ وبعدين ما كنتش أعرف إنك بتحب الكلاب بالطريقة دي، أربعة روت وايلر بره، وأربعة هنا، والله أعلم فيه إيه في الجنينة اللي قدام الفيللا الثانية دي، أنا مش مصدقة.

– حصل عندي محاولتين سرقة من أسبوعين تقريبًا رغم جهاز الإنذار والاحتياطات اللي كنت عاملها خلاني الحقيقة زودت الحراسة بالشكل اللي إنتِ شايفاه. صحيح مش أول مرة أتعرض لمحاولة سرقة، كانت بتحصل كثير إنما على فترات متباعدة، ومش بالاحتراف اللي حصل أخيرًا.

– بس هو البيت فيه حاجات ثمينة لدرجة دي؟

– ثمينة؟ أنا عندي لوحات أصلية تساوي عشرات الملايين، معقول ما تعرفيش؟

– الله؛ هو حضرتك معملتش زي بابا، واستبدلت اللوح الأصلية؟

– طول عمري كنت بعايره بالحكاية دي، لكن الظاهر إني شكلي حاعمل زيه، لأنه بصراحة مانيش مبسوط قوي بالحراسة بالشكل ده.

– تصدق؛ من خوفي وأنا داخلة معاك ما أخذتش بالي بأنه فيه لوحات إطلاقًا.

– يا سلام؛ تعالي يا ستي أفرجك على كل اللوحات، وعندي ليكِ كمان مفاجأة.

***

قاما سويًّا إلى داخل الفيللا، وبدأ يريها اللوحات وهو يشرح قصة كل واحدة منها بالتفصيل، من الذي رسمها ومتى ولماذا، بعضها كانت تعرفه وبعضها لا تعرف عنه سوى القليل، وبعضها لم تره من قبل. كانت اللوحات موضوعةً بشكل متسلسل وكأنها تحكي قصةً بانوراميةً مخططةً بعناية شديدة، وقبل أن يصل إلى اللوحة الأخيرة، قالت:

– مش ممكن! حضرتك موسوعة، كنتم بتدرسوا الكلام ده في كلية الطب؟

قهقه ضاحكًا:

– الفن مش بالضرورة يكون دراسته بشهادة، تقدري تقولي عنه غيه، ودي كانت الهواية المشتركة الوحيدة تقريبًا بيني وبين ياسين، زمان كنا بنجمع اللوحات المقلدة، ولما ربنا فتح علينا بقينا نشتري الأصلية من المزادات. استني نتكلم بالتفصيل بعد ما تخلص كل اللوحات، هنا وفي الفيللا الثانية.

– الفيللا الثانية، كمان؟ إيه ده كله؟ دي ثروة، ولا ثروة متحف اللوفر!

– أنا فعلًا كل ثروتي موجودة في اللوحات دي، فلوسي من ممارسة الطب يا دوب بتعيشني عيشة كريمة، لو كنت بعت اللوحات دي زي ما أبوكِ عمل كنت عشت عيشة خمس نجوم زيه.

قالت وهي تقف أمام اللوحة الأخيرة في بهو الفيللا:

– اللوحة دي إنت مبروزها بشكل مميز جدًّا وكإنها "الماستر بيس".

– ده يا ستي الأستاذ الأعظم. أستاذ والدك الأول، وإن لم يكن الأخير، وللأسف اكتشفته متأخر جدًّا، وطول عمري كنت بأقاوحه، ولكن أتضح إنه هو صح.

– أستاذ؛ بابا مش برضه صورة لميكيافللي بالحجم الطبيعي؟

– تمام هو ميكيافللي بشحمه ولحمه.

– بس ده مات من ييجي ربعميت سنة.

– لكن أفكاره محدش عرف يجيب زيها، لا قبله ولا بعده. أستاذ كل العصور. كل الباقيين طلع بعدهم اللي لغوا نظرياتهم أو على الأقل عدلوا فيها، إنما ده أفكاره كانت وما تزال زي الجنيه الذهب، لخص القصة من أيام آدم لحد عصره واللي حاييجوا من بعده ليوم الدين. حتى آينشتين عدلوا في نظرياته إنما ميكيافللي ما لوش حل.

– بس ده فيلسوف الشر يا أنكل، وفكرته عن الغاية إنها تبرر الوسيلة فكرة مرفوضة أخلاقيًّا.

– مين اللي قال إنه قال الجملة دي؟ ميكيافللي مترجم بكل اللغات، وعمره ما قال الجملة دي. دي جملة قالها نقاد وأدباء حللوا كلامه ونظرياته وصاغوها بالجملة المختصرة دي، إنما هو ماقالهاش نهائيًّا.

– يعني النتيجة واحدة، على الأقل ده كان قصده؟

– إطلاقًا، لسبب بسيط: إن الخلاف كله في كلمة "تبرر". هو فعلًا اتكلم عن الغايات والوسائل، إنما ما جبش سيرة التبرير دي، هو قال يا جماعة هي دي الدنيا، عايز توصل لدي لازم تعمل دي. تركيبة هندسية، مقدمات توصل لنتائج عايزة، تخشي التاريخ لازم تبني لك ملك، والملك لازم له شغل، والشغل قوة وحركة، والقوة علم ومال، حتى أحمد شوقي قالها:

**بالعلم والمال يبني الناس ملكهم**

**لم يُبْنَى ملك على جهل وإقلال**

الرجل ما تكلمش عن الأخلاق نبيلة كانت ولا خسيسة. وهي دي الحقيقة، التاريخ كله بيقول كده، التاريخ ما بيكتبش إلا عن اللي أنجزوا؛ سواء كانوا نبلاء أو حقراء، صحيح بيصنفهم؛ إنما القاسم المشترك هو الإنجاز، ونبيل بلا منجزات مالوش ذكر في التاريخ، لازم يكون حقق نتائج، لازم يكون وصل لحاجة، المجهود والعرق والكفاح ده كله كلام أونطه، والسؤال هو فيه نتيجة ولا لأ؟

وحـاروح بعيد ليه؛ في علم الفيزياء نفسه تعريف كلمه شغل (Work) هوحاصل ضرب القوة في المسافة يعني لازم القوة تؤدي لحركة ولو مافيش حركة يبقى مافيش شغل.

- مش فاهمة؟

- يعني تخيلي إني جبت واحد من البغال اللي بره دول، وقلت له زق الحيطة دي بإيدك، وقعد يزق فيها يوم بحاله بعزم ما فيه حايتحرك منها سنتمتر واحد؟

- لأ؛ طبعًا.

- يعني محصلة شغله صفر، قوة ع الفاضي، مالهاش نتيجة. ميكيافللي اتكلم عن النتيجة، علشان توصلي لها لازم تعملي واحد اثنين ثلاثة... ساعات بقوة، ساعات بذكاء، ساعات بمكر، ودي لها وقتها ودي لها وقتها، المهم عينيكِ على النتيجة. وده اللي طول عمره كان بيعمله أبوكِ...

السكة اللي كان عارف إنها بتوصله كان بيمشي فيها، غير كده ماكانش بيضيع وقته. تمام زي فرق الكرة تلاقي فريق بيلعب حلو قوي وبيعمل جمل تكتيكية زي ما بيقولوا، واللعيبة ترقص وتتشقلب، وفريق ثان أداؤه مقرف ومافيهوش أي جماليات، والثاني اللي يكسب، التاريخ حيسجل إيه؟

مش حايسجل غير الفائز، ويطلع جمهور الفريق الأولاني يقول لك بس احنا لعبنا أحسن وفرقتنا أقوى بس هو الحظ، آه يا خسارة معقولة احنا نخسر من الفرقة المعفنة دي، كلام سيكولوجي علشان يخففوا على نفسهم (The Winner takes it all) هو ده الدرس اللي ما أستوعبتوش إلا متأخر قوي.

– معقول يا أنكل واحد زي حضرتك متذوق للفن، بالشكل الجميل ده، ويقول كده قإلى مراره.

– هي دي المشكلة، التركيبة البشرية... ربنا خلق الناس كده وكده، إنما القانون البشري واحد، علشان العدل مش أكثر، لازم يبقى الموضوع متزن، واحد بيفخر بإنجازاته وواحد بيفخر بجمال أسلوبه، مسألة اختيار...

وبعيد عن العقيدة والدين، ما فيش «حاجة في الدنيا دي مطلق، كل شيء نسبي كل شيء قابل للرأي والرأي الآخر، مهما تكون الفكرة في ظاهرها متفق عليها حتلاقي لها معارض، وله أسبابه الوجيهة، الدنيا كلها قائمة على الثنائية، فيه بعد الديمقراطية؟ فيه حد يختلف عليها؟ ومع ذلك تلاقي واحد عظيم زي فولتير بينقضها من الأساس ويقول "خير لي أن أتبع أسدًا واحدًا على أن أتبع مائة فأر"...

ذكرها اسم فولتير بالمهمة التي جاءت من أجلها إلى إسبانيا، والتي بدا لها أنها ضيعت وقتها بالمجيء من أجلها... أخرجها من أفكارها قائلًا:

– سيبك من الكلاكيع دي، وتعالي أفرجك على باقي اللوحات في الفيللا الثانية.

***

كانت لوحات الفيللا الثانية تحكي قصصًا وموضوعات أخرى حتى وصلت إلى لوحة تسمرت أمامها، وفغرت فاهها. لم تكن سوى لوحة سلفادور دالي التي قطعت كل هذه المسافة من أجلها. هي بشحمها ولحمها. اللوحة الأصلية في برواز زجاجي أنيق. وقفت أمامها مذهولةً لا تعي ما حولها حتى تنبهت إلى صوت جميل الحسيني:

– هناء، هناء مالك اتسمرتي كده؟

– أصل... أصل... مش عارفة.

– بس أنا عارف، وهي دي المفاجأة اللي كنت محضرها لك.

– مفاجأة، مفاجأة إيه؟

– دي اللوحة الوحيدة اللي في القصر ده اللي، أنا ما أملكهاش. دي بتاعتك.

– بتاعتي؟ بتاعتي إزاي؟

– دي اللوحة الأصلية الوحيدة اللي خلاها والدك ومرضاش إنه يتخلص منها وشالها عندي هنا علشان أسلمها لك بعد عمر طويل. ولا قصير. دي هدية منه ليكِ من باب الذكرى.

– مش معقول، اشمعنى اللوحة دي؟

– واضح إنه كان عارف إنك معجبة بيها بدليل إنك اتسمرتي بلا شفتيها أنا

– لا أبدًا؛ إنما حسيت إني شفتها قبل كده.

– ده أكيد لأنها كانات موجودة في الفيللا عندكم سنين طويلة وممكن تكوني فاكراها من زمان.

– فعلًا، الظاهر إنه هو ده السبب، بس أنا عمري ما أبديت إعجاب مميز بيها.

– مش عارف، إنما الأكيد إن والدك كان بيعشقها وما رضيش يفرط فيها أبدًا. تحبي تحتفظي بيها فين، هنا في إسبانيا ولا تاخديها معاكِ مصر؟

– مصر؟ مش عارفة!

– خلي بالك لوحاتسفريها معاكِ، دي محتاجة إجراءات.

– بس حضرتك، يعني، إنت ماكنتش تعرف إني جاية.

– المفروض إني كنت أسلمها لك بعد وفاة والدك، ربنا يديله الصحة يعني، بس أنا مش شايف داعي بأني أحتفظ بيها في الظروف دي، وخصوصًا إن دي فرصة كويسة إنك هنا في إسبانيا. ما أعرفش حاشوفك ثاني إمتى، والدنيا حياة وموت، ودي كانت وصية موصيها لي من سنين طويلة، وعلى فكرة أنا كاتبها في وصيتي عند المحامي بتاعي.

– مش عارفة؛ حضرتك رأيك إيه؟

– رأيي إني أنقلها لك في الفيللا بتاعتكم مبدئيًّا، وبعدين تفكري على مهلك إذا كنتِ حاتسبيها هنا في إسبانيا أوحاتخديها معاك مصر.

قالت بسرعة:

– طيب أنا حاشيلها إزاي دلوقت؟

ضحك قائلًا:

– لأ؛ مش دلوقت اديني فرصة علشان شركة الأمن تيجي ترفعها وتحطهالك مطرح ما إنتِ عايزة وعلشان أحط مطرحها لوحة من المخزن عندي.

– طيب؛ وده امتى؟

– فجأةً بقيتِ مستعجلة كده، على العموم يا ستي بالكثير بكره تكون عندك، تعالي بقه وريني التقارير الطبية بتاعة بابا.

***

لم تطق هناء صبرًا واتصلت بي فور عودتها إلى فيللتها، وحكت لي تفاصيل ما دار بينها وبين جميل الحسيني، ثم استدركت قائلةً:

– اللي مش قادرة أفهمه دلوقت، لما بابا كان شايل اللوحة دي لي، وموصي أنكل جميل إنه يديهالي، ما قالش كده ليه في المستشفى إن شاء الله حتى وشوشني بيها في وداني لو مش عايز حد يسمع، وكلمة سر وشعر وألغاز ولف ودوران.

– والله وجهة نظر معقولة، إنما برضه ممكن يكون فرط حرص، وخايف مهما كان حد يكون سامعه.

– بس بأرجع الفكر الرسالة على الكمبيوتر كانت مكتوبة عامة زي ما بتقول مش موجهة لي، يعني ممكن كان يكون أي حد مش أنا بالتحديد.

– غريبة فعلًا، حاجة تمخول شوية.

– يعني دي كلمات معدودة، اللوحة عند جميل في إسبانيا لوحة دالي تحتها شيفرة تتفك بكتاب فولتير اللي في مكتبي. بس خلاص.

– لاحظي إنه كان تعبان قوي في الفترة دي، وبعدين لو كان قال لك الجملة كده ماكنتيش حاتفهمي حاجته، وتقولي له مش فاهمة، ويعني إيه، وحايضطر يعيد ويفسر أكثر.

– طيب كان على الأقل بعد ما وصل إلى كلمة السر على الكمبيوتر كان يكون كاتب الموضوع بالتفصيل بطريقة مباشرة على الكمبيوتر، كان إيه لزمتها الألغاز دي كلها، ووصل إنها لوحة دالي طالما إنه ما حدش بيقدر يأخذ اللوحة غيري في النهاية؟

يعني إيه الفايدة لو كان أي حد فتح الكمبيوتر وحل ألغازه دي كلها، وكل حاجة واللوحة موجودة عند أنكل جميل، يعني ماقدامهوش غير إنه يسرقها، مش كده ولا إيه؟

– والله ده موضوع سره مع ياسين بك، صعب تفسيره دلوقت، وبعدين خلينا في اللي احنا فيه، حاتعملي إيه لما تجيلك اللوحة؟

– أمال أنا بأكلملك ليه، اللوحة أصلية يا أستاذ، حاشيلها ازاي علشان أشوف إلى تحتيها؟

– خلينا نجيبها الأول، جايز تكون مخبية وراها من غير ما تزيلها ولا حاجة، ثم إن ممكن الشيء اللي هو خافيه أهم بكثير من قيمة اللوحة نفسها.

– نعم؟ أهم إزاي يعني من لوحة أصلية لدالي؟ بغض النظر عن قيمتها المادية لو اتباعت في مزاد، ده تاريخ يا أستاذ.

– طيب؛ بس ماتسبقيش الحوادث، أول ما تبقي في إيدلب، بلغيني فورًا.

***

أصبحت اللوحة أمام عينها تحت غطائها الزجاجي ومحاطةً ببروازها الأنيق. وقفت تتأملها طويلًا، وتعجبت لانبهارها باللوحة، فهذا الأسلوب لم يكن ليستهويها من قبل، ولم تكن لتقف أمامه طويلًا، ربما لم أُحِيط بهذه اللوحة من غموض منذ البداية، وما تحتويه من أسرار لم تعرف بعد كنهها.

قامت بخطوات ثابتة وفصلت جهاز الإنذار، وبمنتهى الاحتراف أزالت البرواز والغطاء الزجاجي حتى أصبحت اللوحة عاريةً أمامها، ولكنها لم تقو على لمسها، ولم تدر ماذا تفعل، وقررت الاتصال بي.

- إبراهيم مش قادرة.

- مش قادرة على إيه؟

- مش قادرة ألمس اللوحة.

- يعني إيه؟!، إحنا حاندلع دلوقت؟

- مش حاقدر أبوظ اللوحة دي.

- طيب؛ إهدي شوية، حاولي تشوفي من ورا اللوحة، جايز تكون فيه لوحة خشب وراها، والصورة موجودة بين الاثنين. خلي بالك برضة؛ ياسين بك كان رجل متذوق للفن وماكانش حايهون عليه برضه تدمير لوحة أصلية ببساطة كدة.

أصابتها كلماتي بارتياح شديد وبدا عليها الاقتناع التام، فبدأت بالبحث خلف اللوحة.

ولكنها عاودت بعد لحظات وقالت:

- إبراهيم، مافيش أي حاجة ورا اللوحة، واضح جدًا إنه مطبق أسلوب فيرمير حرفيًّا.

فكرت لحظات ثم جاءني صوتها قائلًا:

- رحت فين يا إبراهيم؟

- استنى هنا، إزاي عملها بأسلوب فيرمير؟ هو بابا‌كِ اللي رسم لوحة دالي الأصلية؟ ولا بعد ما عمل الصورة اللي عايزها جاب دالي قال له ارسم لي اللوحة بتاعتك على الصورة دي؟ طبعًا مستحيل.

– ؟؟

– اللوحة دي أكيد مش أصلية ولا حاجة، ورسمها رسام من المقلدين على الصورة اللي سابها ياسين بك. ده احتمال أكيد.

– كلامك معقول جدًّا، بس كلام أنكل جميل إنها أصلية.

– ممكن يكون والدك أوهمه بكده.

– يا بني ده شكله خبير في اللوحات.

– ممكن يكون هاوي ودارس آه، إنما خبير دي صعبة شوية. اسمعي اقفلي دلوقت واديني ربع ساعة وحاكلمك ثاني.

– حاتعمل إيه؟

– ربع ساعة بالضبط وحاكلمك، باي دلوقت...

...

– زي ما توقعت؛ اللوحة الأصلية موجودة في متحف سلفادور دالي في فلوريدا.

– فلوريدا، أمريكا؟

– بالضبط؛ كانت مجموعة لوحات بيمتلكها واحد، وقرروا إنها لازم تكون في متحف، واتعملها متحف مخصوص باسم سلفادور دالي في سان بترسبورج في فلوريدا سنة 1971. حاجة كدة زي فكرة متحف محمود خليل وحرمه

– إنت متأكد من المعلومات دي؟

– الانترنت عندك، تقدري تتأكدي، اللوحة اللي قدامك دي متقلدة.

– ريحتني، كنت حاسة إني بارتكب جريمة، كده أقدر ألعب فيها براحتي.

– بس بالراحة واستخدمي مية، بس من غير أي حاجة ثانية، احنا مش عارفين اللوحة مرسومة من امتى، واللي تحتيها عبارة عن إيه ودرجة ثباته.

– ما تقلقش، باي باي إنت دلوقت.

لم يكن من الصعب عليها إزالة اللوحة، وظهرت بعد إزالة ألوانها صورة فوتوغرافية مأخوذة لياسين عبد القادر وهو جالس خلف مكتبة بإحدى غرف الفيللا في إسبانيا، وظهرت على الورقة التي أمامه بمنتهى الوضوح السطور التالية:

28–5–175

28–15–167

15–22–151

24–1–177

8–6–156

2-6-175

12-3-171

3-7-160

2-5-171

1-2-183

5-7-160

وكأن الصورة قد أخذت للتركيز على الورقة حتى يسهل قراءتها بما لا يدع مجالًا للالتباس...

***

# (7)

الفحص الظاهري لنصفي المخ: الفص الأيمن والأيسر، يظهر أن النصفين كأنهما صورة في المرآة، ولكن الفحص الدقيق يظهر اختلافات تشريحية كبيرة...

فنجد أن الفص الأيسر عادةً ما يكون أكبر من النصف الأيمن، ويحتوي ألياف عصبية قصيرة لعمل اتصالات بين أماكن قريبة من بعضها البعض... في حين يحتوي النصف الأيمن ألياف عصبية طويلة تربط بين أماكن متباعدة في المخ...

وكل من الفصيين له وظائف مختلفة عن الآخر، فملكات الكلام واللغة والقدرة على الكتابة وفهم الكلام المكتوب، وكذلك التعامل مع المنطق، وإجمالية الرياضيات؛ كلها من اختصاص النصف الأيسر من المخ، بالإضافة إلى سيطرته على جميع حركات الجزء الأيمن من الجسم...

أما الفص الأيمن؛ فيختص بإدراك الأشكال والصور والرسومات والمجسمات في الفراغ، والقدرة على التعامل مع الهندسة، والتعرف

على الوجوه والمشاعر والأحاسيس، بالإضافة إلى سيطرته على جميع حركات الجزء الأيسر من الجسم.

توصل العلماء إلى ما سبق قبل اختراع الآلات الحديثة التي تقيس نشاط الأماكن المختلفة من المخ من ملاحظة المرضى التي تُجْرَى لهم عملية قطع كتلة الألياف العصبية التي تصل بين نصفي المخ كعلاج لبعض حالات الصرع الحادة.

قد يُفْهَم مما سبق أن النصفين يعمل كل منهما بمعزل عن الآخر بشكل مستقل. الحقيقة؛ العكس هو الصحيح؛ فرغم اختلاف التخصصات لكل من نصفي المخ إلا أنهما يتكاملان طوال الوقت، وهذا التكامل هو الذي يعطي العمليات العقلية والإدراكية الأكبر والأعظم مما يستطيعه كل نصف على حده.

مثال مباشر على (Synergy) بأن يكون الشيء أكبر من مجموع أجزائه، والآن هذان المحيران حيرةً أبديةً منذ بدء الخليقة وإلى يوم الدين: الرجل والمرأة!

قرون مضت وقرون ستأتي؛ وسيبقى الجدل حول المساواة؟ لا أفهم فيما يختلفان؟ نعم؛ وإنهما متساويان ومتعادلان شاء من شاء وأبى من أبى...

المشكلة ليست في الإيمان بالمساواة كفكرة أو مبدأ أو إيديولوجية، المشكلة فيما يُبْنَى عليها من أفكار. هما متساويان نعم، ولكن في

الحقوق، ولكن لا يُعْقَل أن يتساويا في الواجبات التي تُطْلَب من كل منهما لسبب بسيط...

إن كل منهما له تخصصه تمامًا مثل فصي المخ. هو يملك أشياء لا تملكها، وهي تملك أشياء لا يملكها... هو يتحمل ضغوط عالية، ولكن لفترات قصيرة، وهي تتحمل ضغوط متوسطة ولكن لفترات طويلة؛ لا يتحملها هو...

وهي أكثر صبرًا على الأعمال الدقيقة والمتكررة والتي تحتاج لدقة ملاحظة، وهو أقدر على رؤية الصورة العامة بعيدًا عن التفاصيل...

هي صاحبة ذاكرة حادة تكاد لا تنسى شيئًا، وهو صاحب ذاكرة قصيرة يحتفظ فيها بالخلاصات...

هي صاحبة نصف دماغ أيمن، عبقرية في حفظ الصور والأشكال والمشاعر والأحاسيس والعواطف، وهو رائع في استخدام نصف دماغه الأيسر الأقدر على التعامل مع المنطق الرياضي المجرب والرموز والتحليل الموضوعي...

هي مخططة جبارة؛ خاصةً إذا تم استفزاز مشاعرها، وهو منفذ عبقري يجيد استخدام أدواته...

هما متكاملان إذًا، ومعًا يستطيعان إنجاز أشياء تفوق قدرة كل منهما على حدة، فلماذا الإصرار أن يكون دليل المساواة أن تعمل هي كل ما

يعمله هو على الرغم أنها تستطيع الاتيان بأشياء لا يحلم هو بمجرد الاقتراب منها؟

أين القضية إذن؟ لا أدري! وغالبًا ما ستبقى أبد الدهر كذلك... (An Eternal Conflict).

***

لم يكن من الصعب فهم الرموز المكتوبة، فالرقم الأول من اليسار لم يكن سوى رقم الصفحة، والرقم الثاني رقم السطر، والرقم الثالث ترتيب الحرف في السطر. وبتتبع الكود المكتوب مع كتاب فولتير الذي حملته معها هناء، أمكن الوصول إلى كلمة السر (Seeds Of Evtl) "بذور الشر"...

وماذا بعد كلمة سر جديدة، ولكن أين تستخدم هل في نفس جهاز الكمبيوتر الموجود بالمعمل؟ مستحيل فالجهاز كان له مدخل واحد بكلمة سر واحدة. هل هو جهاز كمبيوتر آخر موجود في المنزل في إسبانيا؟

بحثت هناء في كل مكان ولم تجد أي أجهزة. هل هي كلمة سر تُسْتَخدم في بنلف في خزينة حفظ مثلًا؟ ولكن أي بنك؟ لا يوجد في الصورة أي كتابة بخلاف الكود المكتوب على الورقة. وبحثت هناء في كل جنبات المنزل فلم تجد أي أوراق تخص البنوك. وضعت هناء الصورة أمامها وجلست على المقعد خلف مكتب ياسين بك، واتصلت بى:

– وبعدين؟ إيه آخرة الغلب ده كله؟

– محتاجين ندور أكثر، شوفي ورا كل اللوحات جايز يكون فيه حاجة مستخبية.

– يا إبراهيم أنا بقالي يومين دلوقت ماسبتش خرم إبرة في البيت، البيت، ما فيهوش ورقة واحدة ولا حتى ورقة فاضية.

– غريبة قوي إنه يسيبنا كده من غير أي خيط للخطوة اللي عدها. طيب شوفي كدة في الكتاب يمكن ما تكونش كلمة سر، وتكون اسم كتاب مثلًا.

– بقول لك ما فيش ولا ورقة، مكتب بابا مافيهوش كتبه، ما فيش مكتبة، حتى أنا فاكرة إنه كان فيه مكتبة مليانة كتب هنا.

– معقولة دي، أوضة مكتب ياسين عبد القادر وما فيهاش مكتبة ولا كتب.

– أنا تعبت مش عارفة أعمل إيه، أفضل هنا ولا أرجع ولا أروح فين؟

– إنتِ أخذتِ رأي الدكاترة في التحاليل والتقارير اللي سافرتِ بيها؟

– بكره الصبح معادي معاهم، وكمان بكره الاثنين وكلود حايكون موجود من الصبح.

– طيب من هنا للصباح.

لم أكمل كلامي حتى قاطعتني هناء قائلةً:

– إيه ده، الصورة فيها مكتبة وفيها كتب، فين الكلام ده؟

– موجودة فين؟

– ورا بابا بالضبط، وعلى بعد مترين تقريبًا. وأنا قاعدة على المكتب ووورايا حيطة.

– يمكن مكان المكتب كان مختلف في الصورة؟

– كنت فاكرة كده الأول، الصورة واضح إنها مأخوذة من كاميرا عند باب المكتب، وكل حاجة في الصورة زي ما أنا شايفاها تقريبًا، يمين وشمال لكن ورايا حيطة، مافيش مسافة متر حتى...

– خبطي على الحيطة دي كده.

– دي مش حيطة يا إبراهيم، واضح من الصوت إنها حاجة سمكها رفيع وراها فراغ، إنما مدهونة بنفس لون الأوضة. فيه حاجة ورا الحيطة الوهمية دي.

– طيب حاولي تزقيها! أو تحركيها.

– استنى يا إبراهيم.

غابت قليلًا، ثم عادت إلي مرةً أخرى:

– ما بتنزقش بسهولة كده، وكمان مصمتة تمامًا مالهاش أى مكان تكون بتنفتح منه.

- يبقى لازم تحاولي تكسريها.

- ودي أكسرها ازاي؟ دي عايزة شاكوش متهيألي.

- وليكن.

- وأجيب شاكوش منين دلوقت. وبعدين استنى؛ ازاي بابا بنى الحيطة دي من غير ما حد يعرف؟

- يا سلام دي ممكن تكون حيطة جاهزة اشتراها وركبها في دقائق بالمقاسات اللي عايزها، وممكن يكون دهنها بنفسه كمان، وكلود اللي بييجي كل يوم، صبح الصبح لقى حيطة مبنية؟

- ده بيتوقف الحيطة دي اتبنت امتى وكلود بيشتغل عنده قبلها ولا بعدها.

- معقول برضه، ممكن ما يكونش قديم لأنه في الحقيقة ما سمعتش عنه قبل كده. بس استنى ده كان بيقول أن نظام الإنذار كان موجود أيام اللوحات الأصلية، يعني كان موجود أيامها.

- ممكن يكون عارفه. للمعلومة إنها مش شرط إنه حضر الفترة دي. وعمومًا ده مش موضوعنا دلوقت بمكالمة صغيرة منك لمدام سهير حاتعرفي الزفت ده اتعين امتى، ودلوقت حنعمل إيه في الحيطة؟

- طيب سيبني أشوف حاقدر أعمل إيه وحاكلمك ثاني. ياه ده النهار ابتدى يطلع.

– في جميع الأحوال وعلى سبيل الاحتياط خلي جهاز الإنذار مقفول لحسن تكون الحيطة متوصلة به بشكل أو بآخر.

***

لم تستطع أن تفعل شيئًا من دون أي معدات، كما أنها خافت أن يصل كلود ويراها وهي تحاول كسر الحائط، ففضلت أن تؤجل المحاولة إلى ما بعد انصرافه، وتكون قد استطاعت الحصول على شاكوش وأجنة. ارتدت ملابسها وتوجهت لمقابلة الفريق الطبي الذي عُرِضت عليه التقارير والتحاليل الخاصة بوالدها.

استقبلها رئيس الفريق الطبي في مكتبة بابتسامة باهتة:

– في الحقيقة أنا مش عارف أقول لك إيه، التحاليل كلها بتؤكد وجود تسمم في الدم، لكن مش مفهوم سببه، وفي الأحوال اللي من النوع ده بنرجح إنه تعرض لمادة كيميائية ما أدت إلى حالة التسمم دي، يعني مش حالة مرضية طبيعية إنما فيه مؤثر خارجي هو اللي أدى للحالة دي.

– يعني فيه حد سممه؟

– ما أقدرش أقول كده، ممكن كان بيتعاطى أنواع معينة من الأدوية أو أكل أو شرب حاجة اتعرضت لمواد سميتها عاليه، مش شرط يكون فيه شخص هو اللي عمل كده.

– طيب ودي نقدر نعرفها ازاي؟

– الحقيقة إن الاستجواب التفصيلي الدقيق للمريض بيساعدنا كثير في الوصول للمصدر، يعني أدويته، أكله، شربه، خصوصًا في الفترة اللي سبقت شعوره بالأعراض، لكن أنا مش لاقي في التقرير أي استفاضة في الموضوع ده، وكلها محاولات تشخيص للحالة. أعتقد أن الإجابة ممكن تكون عند المريض نفسه.

– بس هو حاليًّا في غيبوبة. واللي أنا مش فاهماه إزاي من كل التحاليل ما أمكنش على الأقل معرفة نوع السم علشان يقدر يأخذ العلاج له.

– واضح إنه كان واصل لمرحلة متقدمة لما داخل المستشفى، وإن السم أخذه على جرعات على مدار فترة زمنية طويلة نسبيًّا، وبعدين توقفت الجرعات فترةً بحيث ما أمكنش الكشف عن المادة نفسها في الدم، وإنما بقتل آثارها فقط، والآثار دي ممكن تكون من أنواع لا حصر لها...

بمعنى أن المشكلة أصبحت مش في إيجاد ترياق للسم نفسه، وإنما علاج التدمير اللي نتج عنه في الجسم، وده موضوع صعب خصوصًا مع تقدم السن وانخفاض المناعة.

– طيب والحل؟ هل الأحسن ننقله هنا للعلاج؟

– ماعتقدش أنه ده موضوع مفيد في الوقت الحالي، وخصوصًا إنه في مرحلة غيبوبة.

– حضرتك، المرجح إنه أخذ السم ده بطريق الخطأ ولا بفعل فاعل؟

– احنا عرضنا الموضوع على خبراء السموم عندنا، والغريب إنه ما قدروش يجاوبوا على السؤال ده بشكل واضح، إنما...

– إنما إه يا دكتور؟

– الغريبة دي، عادةً ما بتكونش في متناول الشخص العادي في حياته اليومية.

– يعني الموضوع تم بفعل فاعل؟

– ما حدش يقدر يقول لك الكلام ده بشكل قطعي، دي مجرد تكهنات.

– طيب ممكن حضرتك تديني تقرير؟

– طبعًا، بس مش حايخرج كثير عن الموجود في التقارير اللي إنتِ جاياها، لاحظي إننا مافحصناش المريض وتقريرنا حيكون مجرد تعليق أوتفسير للكلام اللي اتعرض علينا.

شكرته وانصرفت بعد أن دفعت الفاتورة في الحسابات، وخرجت إلى الشارع مفضلةً أن تسير على قدميها إلى سوبر ماركت قريب من المستشفى حتى تشتري المعدات التي تريدها لكسر الحائط.

استطاعت شراء كل ما خطر لها على بال أنه قد يفيدها في مهمتها، فأخذت شاكوشًا وآجنةً ومثقابً كهربائيًّا صغيرًا. حاولت الاتصال، بي

شدة مرات لاستشارتي في ذلك ولكن دون جدوى، فقد كان الهاتف مغلقًا؛ لم تتعجل الوصول إلى البيت، وفضلت التسكع في شوارع مدريد حتى يقترب موعد انصراف كلود، حتى لا يرى ما معها من أدوات.

وصلت بالفعل إلى الفيللا بعد انصراف كلود، واتجهت مباشرةً نحو غرفة المكتب، ووضعت ما معها من أحمال أمام الحائط وذهبت لتصنع لنفسها كوبًا كبيرًا من القهوة قبل أن تبدأ مهمتها، فلم تكن قد ذاقت طعم النوم لمدة يوم كامل.

فضلت أن تبدأ بالثقاب الكهربائي حتى يساعدها بشكل أسرع خاصةً أن الوقت كان ما يزال مبكرًا، ولن يثير الصوت انتباه أي من المارة في الخارج. ولكن ما إن بدأت في تشغيل الثقاب حتى سمعت جرس الباب فأغلقته، وترددت قليلًا قبل أن تقوم إلى الباب الخارجي...

لكنها قررت في النهاية الذهاب خوفًا من أن يكون كلود قد عاد مرةً أخرى، وجرسه الأول كان بمثابة تنبيه فقط، وسيقوم بفتح الباب بمفتاحه إذا لم يجد إجابةً، خاصةً أنها قد أغلقت جهاز الإنذار فور دخولها.

لم يكن القادم سوى جميل الحسيني الذي استقبلته على مضض؛ محاولةً إخفاء ضيقها من قدومه في تلك اللحظة.

- أنكل جميل اتفضل.

- ما كنتش عايز أزعجك دلوقت، لكن ما قدرتش أستنى وأنا عارف إنك قابلتِ الدكاترة النهار ده، عملتِ إيه؟

حكت له ما قِيل لها بالتفصيل، وما أن انتهت حتى هز رأسه قائلًا:

– زي ما توقعت بالضبط، أكيد ياسين اتعرض للسم بتاعه بشكل أو بآخر، وده مش ممكن حد يكتشفه.

– السم بتاعه؟

– دي قصة طويلة، وابتدت من زمان قوي. المهم خلاصتها إن ياسين عمل مركز الأبحاث بتاعه علشان يكتشف أضرار نوع معين من الفطريات؛ اللي بيُسْتَخدم لتدمير الزراعات الاستراتيجية، ووصل مؤخرًا لمواد مضادة للفطريات بتقضي عليها في مراحلها الأولى.

– فطريات ضد الزراعة؟ مش ضد البني آدمين يعني؟

– ما أنا جايلك في الكلام، اكتشف كمان أنه ببعض التعديلات الوراثية للفطريات

دي ممكن يتحول أسهم مؤثر بشكل مباشر على الحيوانات والإنسان، وكمان وصل لمضادات حيوية تبطل مفعول السم في حالة استخدامه ضد الإنسان.

– طيب كويس، معناه إنه له علاج.

– مش كويس أوي، لأن العلاج بينفع بس في المراحل المبكرة من تعاطي السم، إنما إذا اتُّخِذ بجرعات عالية أو على فترات طويلة، فالعلاج مالوش أي تأثير.

– طيب إذا كان عارف كل ده، ليه ما أخذش العلاج من الأول؟

– بالتأكيد ماكانش عارف إنه بيتعاطى السم من أصله.

– إزاي عرفت المواضيع دي على سبيل اليقين كده؟

– لما سماح، الله يرحمها، حكت لي إن ياسين اكتشف سم الفطريات والمضاد له، حذرته من إنه مش لازم حد يعرف الوضوع ده، لأنه ليراس مش حاتسكت وحاتحاول تحصل على المضاد ده بأي طريقة، ومش حاتسمح لحد إنه يكشف عنه...

المهم إنه هاج وماج واتخائق مع سماح خناقة لرب السماء، واتهمها إنها بتتجسس عليه، وكان حايطلقها وسابت له البيت، وكانت بداية قطيعة بيني وبينه لحد...

– لحد إيه؟

– لحد ما عرفت إن سماح مريضة مرض شديد جدًّا وصحتها كل يوم في النازل، أخذتها وعرضتها على الدكاترة محدش عرف عندها إيه.

– طيب ليه بابا مش هو إللي كان معاها عند الدكاترة في الوقت ده؟

– ياسين أخذ المواضيع باستهانة في الأول، فلما اشتد عليها المرض لجأت لي. المهم إن الفار لعب في عبي من التقارير الطبية، وواجهت ياسين إني شاكك أن القاسم ده أخذته سماح بشكل متعمد...

سفه كلامي ساعتها، وقال بلاش كلام فارغ، وبأني عارف إن الفطريات دي مش ممكن تُسْتَخدم مع البني آدمين، لكن مش عارف؛ كنت حاسس إنه بيكذب، وإنه قدر يوصل لتطوير الفطريات دي، وينتج منها سم من نوع معقد...

أنكر بشدة، واتهمني إن كلامي ده لو أتنطور ممكن يتقتل فيها لو ليراس شمت خبر عن الموضوع ده. كان كلامه ملخبط جدًّا، وجملة منه بتؤكد وجملة ثانية تنفي. ومعرفش... إنما اترسخت عندي قناعة إن هو ده اللي حصل.

– وبعدين؟

– وبعدين ماتت سماح ومات معاها السر، ولكن وصلتني معلومات بعد كده بتؤكد شكوكي وإن ليراس عرفت الوضوع ده اللي عمل أزمة بينه وبينهم.

– معنى كده إنه فيه ناس كثير عارفة الموضوع ده في مركز الأبحاث والمستشفى؟

– مش بالضرورة، ناس كثير ممكن تكون محصورة في دائرة صغيرة حوالين ياسين، مجموعة الأفاقين اللي اختارهم مساعدين له وحذرته منهم كثير. وفي الأغلب ممكن يكون مندور هو الوحيد اللي عارف.

– طيب والناس اللي بتشتغل في المركز؟

– ياسين كان حريص جدًا إنه مافيش حد يعرف حاجة، وكان مقسم الشغل مجموعات بحيث كل مجموعة تشوف جزء من الموضوع، إنما ماحدش عنده المعلومة كاملة، وكان قاطع الخيوط بين المجموعات دي، بحيث ما تعرفش تجمع الأجزاء مع بعضها

– يعني بتشك إن ليراس هي اللي إدته السم ده؟

– أنا شبه واثق من الموضوع.

– شبه؟

– الحاجة الوحيدة اللي تخليني مش واثق مليون المية، إنهم إزاي إتأكدوا إنه بوفاة ياسين المعلومات دي مش حتتسرب للي بعده، لأنه أكيد ياسين كان فاهم القصة كويس وعارف إنه مهدد، وممكن يكون شايل مستندات في خزينة في البنك مثلًا تنفتح بعد وفاته أو معرف مندور طريقها، مش عارف بالضبط. وبعدين ...

– وبعدين ليه يستخدموا معاه نفس نوع السم، وهو بيأخذ وقت طويل نسبيًا قبل الوفاة، ليه مش طريقة قتل سريعة؟

– يمكن نوع من الانتقام؟

– الناس دي عمليين جدًّا، كده منحوه مساحة وقت إنه يوصل أي معلومات لأي حد هو عايزه، كان منطقي إنهم يخلصوا منه بسرعة.

أجهشت هناء بالبكاء، فقد كان وقع كلمات جميل عليها قاسيًا، احتضنها بين ذراعيه وحاول أن يهدئ من روعها، وما إن هدأت حتى ودعها وانصرف... بعد انصرافه اتصلت بي هناء على التليفون المحمول، وهي تغالب دموعها...

– إنت فين يا ابراهيم، بأحاول أكلمك من الصبح...

– ما شحنتش البطارية امبارح بالليل.

– وده يمنعك إنك تتصل بي؟

– أنا آسف يا حبيبتي، قولي لي عملتِ إيه النهار ده؟ مال صوتك كده بتتكلمي بالعافية، وكمان رنة تليفونك كانت غريبة كده...

– غريبة يعني إيه؟

– إنتِ ناسية إنك بتتكلمي دولي، ما أنا كلمتك أكثر من مرة قبل كده.

– إبراهيم كنت بتصيع النهار ده ولا إيه؟ انتهزت فرصة سفري وقلت تشوف نفسك؟

– إيه الهبل اللي بتقوليه ده، إنتِ عارفة معنى إني كده؟

– أنامش عارفة يا إبراهيم، أنا متلخبطة جدًّا.

وحكت إللي دار معها بالتفصيل حتى مغادرة جميل الحسيني، مما ساعدها أن تتمالك رباطة جأشها فقلت:

– أكيد الحيطة وراها كل المستندات الخاصة بالموضوع ده...

– أنا حابتدي أكسر فيها دلوقت، الله يسامحه أنكل جميل عطلني، مش حاقدر أستخدم الثقاب دلوقت لازم أستخدم الشاكوش...

بدأت هناء في التعامل مع الحائط بحذر شديد، ويبدو أن ياسين عبد القادر كان يعلم إنها ستستخدم معدات بدائية، فصمم الحائط بحيث يستجيب بسهولة، فلم تستغرق وقتًا طويلًا في نبش فجوة كبيرة مكنتها من الدخول إلى الغرفة الخفية؛ التي طابقت تمامًا ما ظهر في الصورة.

وجدت أمامها المكتبة مليئةً بالكتب في كل جوانبها ما عدا في المنتصف، فقد تم تفريغه تمامًا من الكتب، ووضع مكانها حقيبة جهاز لاب توب. لم يكن في الغرفة أو بمعنى أصح المساحة التي كانت مخفيةً وراء الحائط شيء آخر، فأدركت أن المقصود هو جهاز الكمبيوتر...

فتحت الحقيبة على عجل، وحاولت فتح الجهاز في مكانه، ولكن يبدو أن بطاريته كانت قد فقدت شحنها، فأخرجت الجهاز إلى غرفة المكتب وأوصلته بمصدر للتيار الكهربائي "أدخل كلمة السر":

أدخلت كلمة السر التي استخرجناها سويًّا من كتاب فولتير (Seeds Of Evtl) فتح الجهاز على مصراعيه ووجدت به عشرات من الملفات التي عاشت معها ما يقرب من الساعتين.

وفجأةً سمعت جرس هاتفها المحمول الذي تركته في غرفة الاستقبال بعد محادثتها معي عند مغادرة جميل الحسيني، فقامت فزعةً إليه، وما إن خطت خطوةً واحدةً خارج الغرفة حتى شعرت بضربة قوية على رأسها أفقدتها الوعي فسقطت مغشيًّا عليها.

**إبراهيم دياب.**

**مارس 2007...**

***

كان صباحًا مشمسًا من أيام شهر مارس، وقد تسللت أشعة الشمس إلى غرفة المكتب الفسيحة الكائنة في الطابق العاشر من البناية الشاهقة التي تمتلكها شركة ليراس في قلب العاصمة الإسبانية مدريد، وقد جلس الرجل العجوز بشعره الأبيض الأشعث أمام رقعة الشطرنج، وقال وهو يحدث اللاعب المنافس:

- على علمي إنك لعيب شطرنج قديم.

- في لهجتك كده إنك مش مقتنع بكده.

- أكلك للبيدق بتاعي بيدل إن الافتتاحية دي ما مرتش عليك.

- لأ، مرت علي طبعًا، الدفاع الصقلي وباستخدمها دائمًا لما بألعب بالإسود، ولا كنت لعبت تقليدي ما إنت ابتديت، بيدق 4 ملك.

– بس الدفاع الصقلي له تفريعات كثير، واللي بيستخدمه لازم يكون فاهمه كويس.

– أنا عارف. بس فعلًا إنك تسيب بيدق الحصان بتاعك بدون حماية بحيث أقدر أكله بالوزير، شكلها كان غريب شوية، بس لقيت إنه مافيش وراها أي مشكلة إني أكله، ما هي دي فلسفة التفريعة دي، بيدق سهل بدون حماية تغري أي حد يأكله بالوزير قوام قوام، ولسه اللعب في أوله...

إنما الحقيقة إنك فتحت لي الخط إني أحرك الطابية مكان الحصان وأقول لك كش، وزير ما فيش مشكلة، الوزير سهل بيتحرك وبعدين كش الوزير ثاني بالحصان.

– برضه مافيش مشكلة، الوزير مش مزنوق وممكن بيتحرك ثاني.

– المشكلة أنه عندي ثلاثة نقلات متتالية بهدد فيها وزيرك، وبتضطر كل مرة ترجعه للخلف لحد ما يكون أسلم لك ترجعه مربعه الأصلي، وأكون أنا في الوقت ده دخلت كل قطعي تقريبًا في وسط اللعب، وإنت لسه كل قطعك مكانها. وبما إني بالعب بالأبيض، بقيت سابقلك بكثير...

– بس لو قدرت أضبط نفسي وأتوازن، في نهاية اللعب حايكون عندي بيدق زيادة.

– ده لو وصلنا للنهايات، تعريف "البيدق المسموم" (Poisoned Pawn)، لو ماكنتش عارفها عادةً بتخلص لصالح الأبيض في نص (Hgguf)...

– علشان كده كنت مسمي العملية بتاعتنا البيدق المسموم.

– عليك نور، وده كان منطبق عليها من أول يوم، ومن أكثر من ناحية. ياسين بعد الغرور ما لحس عقله وافتكر إنه كبير وما حدش بقى قده افتكر إنه يقدر يهددنا بالمعلومات التي وصل لها، وخلق لنفسه كيان زي (ليراس) والمؤسسة الشرقية، وطبعًا ما كانش بيثق في أي حد فيكم...

– مريع! أنا دايمًا كنت معتقد إنه بيعتبرني ذراعه اليمين.

– إنت وأقدم يا سي غندور، ياسين كان بيثق في شخص واحد بس، اسمه ياسين عبد القادر، والأفراد طول عمرهم وسيلة عنده علشان يواصل ودي. كانت غلطة عمره اللي ماعرفش يتعلمها إننا كيانات، الأفراد فيها بتروح وتيجي وجيل بيسلم جيل...

– بس واضح إنه مخطط، إنه يسلم كل المعلومات اللي عنده لهناء؟

– متهيألك، الفكرة كلها إنه كان دايمًا قلقان إننا ممكن نتخلص منه في أي وقت، وفي الحالة دي كان محتاج حد ينتقم له لو اتغدر به، وطبعًا حيكون قمة الانتقام لو وصل المعلومات للمؤسسة الشرقية، ودي سكتها الوحيدة كانت عند جميل الحسيني...

وباعتبار تاريخهم مع بعض ما كانش حيلجأ له إلا إذا إتأكد إنه في خطر حقيقي. أما غير كده فكان يفضل إن سره يموت معاه ولا إنه يسيب مملكته دي لحد من بعدها حتى بنته...

– بس مملكته إحنا بالفعل مسيطرين عليها من بعده!

– لأ، بس من غير المعلومات الأخيرة اللي وصل لها تبقوا لسة صغيرين قوي، القصة مش قصة فلوس يا عزيزي، ياسين كان بيعتبر نفسه دولة.

– بس إزاي اتأكدت من الكلام ده وإنه ماكنش سايب خيط من بعده في وصية ولا أي حاجة؟ يعني لو كان مات فجأة ما كناش حانوصل لأي حاجة.

– في الأول ما كنتش متأكد، وكنت حاطط الاحتمال ده برضه، فكان الحل الوحيد إنه يوصل له رسالة إننا استخدمنا معاه السم وإنه خلاص اتمكن منه وأيامه بقت معدودة يقوم يبتدي يأخذ خطوات في نقل المعلومة، ونعرف هو مرتب إيه...

وصدق ظني إنه ماكانش مرتب إن الزرار ينضغط تلقائيًّا، إنما كان لازم يدوس عليه بنفسه. وبوجوده تحدثت أعيننا في المستشفى ماكانش قدامه غير هناء. البيدق البريء مش بالضبط، هناء كانت في باله من الأول، وعلشان كده كان شايل الشيفرة في اللوحة اللي أودعها عند جميل أمانة يسلمها لها...

هي فعلًا كانت البيدق إلى ياسين. عارف إنه الوحيد اللي بيقدر بيدخل بيت جميل، ويخرج باللوحة بمنتهى السلاسة. الخيط ده كان مرتبه من زمان إنما ماكانش حايشده أبدًا إلا إذا كان مضطر.

– حصان طروداه؟!

– يا مندور؛ إنت إيه اللي جرى لك، ما حصان طروادة ده كان مظهر بريء بيخفي جواه عدو، هناء كانت بريئة من الداخل والخارج؛ إنما كانت بيدق مسموم من غير ما تدري.

– بس هو لجأ كمان لإبراهيم؟!

– مش بمزاجه، هناء كانت محتاجة مساعدة، ما كانتش تقدر توصل لوحدها، كان واثق إنه الوحيد اللي حايقف جنبها.

– إذا كان الوضوع كده، كان إيه لزمتها الألغاز العقدة اللي كتابها على الكمبيوتر بتاعه؟ ما كان دلها على السكة على طول.

– ياسين كان عارف إن كل كلمة بيقولها في المستشفى مسموعة علشان كده وجهها للمكان اللي تقدر توصل منه.

طيب ليه ماكانش كاتب الوضوع مباشرةً بدون لف ودوران طالما عارف إنها هي اللي حاتقرأ الكلام بعد ما وصل لها كلمة السر؟

ضحك الرجل العجوز واستدار إلى مكتبه، وأخرج منها ورقةً مطبوعةً، وقدمها لمندور قائلًا:

– دي نسخة من الكلام اللي كان مكتوب على الكمبيوتر:

" هناء. الدخول بكلمة السر هذه تعني إني أصبحت في خطر، وليس أمامي سواك. في فيللا جميل الحسيني في إسبانيا يوجد لوحة سلفادور دالي: (The slave market)...

أودعتها لديه أمانةً باسمك، تُسَلم لك بعد وفاتي. هو يعتقد أن اللوحة أصلية وفي الحقيقة إنها مجرد تقليد، ويوجد تحتها صورة، ويمكن لك إزالة اللوحة المرسومة بقليل، من الماء...

في الصورة مفتاح شيفرة، وباستخدامها مع كتاب فولتير الوحيد الموجود في مكتبتي بالقاهرة؛ ستعرفين كلمة السر الثانية. انظري إلى الصورة جيدًا ستعرفين أين تبحثين على الجهاز الذي يحمل كل أسراري...

لن يستطيع أحد الدخول إلى منزل جميل غيرك. لقد تركت لك الكثير الذي يعينك على العيش من بعدي؛ أسرتك وأولادك وأحفادك... ولن تستطيعي الاستفادة من باقي المعلومات، فسلميها لجميل، وهو سيعرف كيف ينتقم لي...

ملحوظة: احتفظي بأرقام تليفوناتي المحمولة، لقد اخترتها بنفسي إذا كتبتيها بالقاموس الإسباني في رسالة على المحمول وبعدها سبعة وزائد أن تعطي اسم (Ver31368T) الفنان الذي أخفيت بأسلوبه صورتي وراء لوحة دالي، واحتفظي أيضًا بساعتي ولا تدفنيها معي كما أوصيتكم.

– إيه ده؟ ده مفيش أوضح من كده!

– هاها، أُمَّال إنت كنت فاكر إيه. الشعر والشيفرة والخزعبلات دي كلها كانت من تأليفي يا سيد.

– ليه؟

– علشان نكسب وقت، كنت معتقد إني أقدر أسرق اللوحة من بيت جميل من غير هناء ولا غيرها، إنما رغم إني استعنت بمحترفين، احتياطات جميل كانت أشد. المؤسسة مأمنة بيته تمام.

– لكن... لكن...

– إيه؟ مالك بتتأتأ كده ليه؟

– إبراهيم مش كده؟

– إبراهيم يا عزيزي ده الرجل بتاعي. من زمان كنت شايلو لوقت عوزة. إنما مثل دوره ببراعة، أوهمها إنه فيه شاشة؛ الأول بعد حل لغزها بلوحة فان جوخ، تظهر لوحة ثانية وفيها الشعر إياه اللي إنت عارفو؛ اللي أنا ألفته في لحظة تجلي. القصة كلها كانت لكس طبعًا ماكانش ينفع إني أكشف إبراهيم ليكم من الأول لأن أحمد أفندي قاسم كان ممكن إيبوظلي الطبخة كلها...

– دائمًا هناء ذكية جدًّا، كان ممكن تتخيل الشيفرة لوحدها وبسرعة.

– إزاي يا مندور؟ لوحة سلفادور دالي كانت، حاتوصلها إزاي؟

– من الشعر بتاعك زي ما وصلولها بالطريقة المنطقية إنما كان ممكن توصل من غير إبراهيم.

– هو أنت صدقت أن ساعة ياسين كان محفور عليها صورة دالي؟ إبراهيم هو اللي أوهمها أن زرار الساعة كان محفور عليها لوحة.

– يا نهار أبيض. إبراهيم يطلع منه كلا ده؟

– ده ولد عبقري، لو كنت أنا إلى نفذت العملية دي بنفسي ماكنتش طلعت بالجمال ده...

– وهو فين د الوقت؟

– في الكوتدازور؛ عزمته يروح يفك على نفسه شوية خصوصًا أنه كان متأثر شوية بعد ما ضرب هناء على دماغها في الفيلا.

سمعا نقرًا على الباب، ودخلت السكرتيرة قائلةً:

– حضرتك، الأمن تحت بيقول إنه فيه واحدة ست عايز تقابل حضرتك.

– ست! اسمها إيه؟

انحنت وهي تخفي شفتيها بكف يدها وهمسات في أذنه، فاندهش ونظر إلى مندور ثم قال:

– طيب خليها تطلع لمكتبي في الدور التاسع وأنا حانزل لها حالًا.

– بلاش مستر دي؛ طالما بتتكلم عربي، بتحسسني إني خواجة ولابس برنيطة.

– أوكي أستاذ بهاء.

– إنما إنتِ عرفتي مكاني إزاي؟

– يا نهار أبيض! أشهر من نار على علم!

نظر لها بارتياب:

– المكتب ده عنوانه مش متسجل في أي حته، ومافيش ناس كثير بيعرفوا إنو فيه مكتبي...

– على الأقل الناس القريبين منك عارفين...

– ناس قريبين مني، زي مين؟

– ياسين عبد القادر مثلًا؟

– وياسين بك قال إيه على مكاننا؟

– ياسين بك قال لي كل حاجة عنكم، وعن حضرتك بالذات...

– آه، وقال لك إيه بالضبط يا شاطرة؟

مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت جزءًا من قلادة وقطعةً معدنيةً بحجم الأصبع ووضعتها أمام المكتب:

– الشاطر اللي إنت بعته علشان يضربني ويأخذ اللاب توب ماكانش عارف إن في الشنطة فلاش ميموري Flash memory عليها كل المعلومات اللي كانت على الجهاز، وكانت في إيدي ساعة لما رن التليفون وخرجت أرد عليه. ودي نسخة طبق الأصل من الفلاشة الأصلية. وفوق البيعة وقع منه تذكار كنت جايباه له في عيد ميلاده.

ابتسم الرجل بثقة وقال:

– أما طلع غبي بجد. إنما مش كان من الطبيعي إنك تسلمي الفلاشة لجميل الحسيني؟

– أنكل جميل رجل طيب؛ كان حايروح يديها للمؤسسة بتاعته.

– وناوية تعملي إيه؟

– اللي كان أبويا عايز يعمله. قوة ثالثة...

– هأهأها... بالبساطة دي؟

– ماتستقلش بي يا بهاء بك.

– مش المقصود إنما إيه اللي خلاكِ واثقة إنك حاتطلعي من هنا حيه؟

– علشان أنا مرتبة أموري كويس، وأفضل بكثير من اللي كان مرتبه بابا. إنت ما يهمكش إن المعلومات توصل للمؤسسة، حاتعطلك شوية، إنما ده منافس إنت عارفه كويس، وعارف تلاعبه إزاي، وكمان مش حاتزعل قوي لو فيه طرف ثالث انضملك، ومستعد يلعب بنفس القواعد. إنما الخطورة الحقيقية إنه...

– إنه إيه؟

– إن الملعب يوسع أكثر، والمعلومات تتبعت لأربع خمس مراكز أبحاث، وتنتشر في الأوساط العلمية، ويبقى في الملعب لعيبة كثير ما تعرفش تلمهم. الميزان يفرط منك يا بهاء بك...

فكر الرجل قليلًا وابتسم قائلًا:

- بنت أبوها بصحيح، والظاهر حابتدي أغير طرق لعبي في الشطرنج...

- حضرتك بتلعب شطرنج كويس؟

- إنتِ شايفة إيه؟

- الميه تكذب الغطاس، عندك شطرنج هنا؟

**تمت**